مدرستا أهل القرآن واقرأ لتعليم القرآن الكريم

ولاية سمائل – وادي بني رواحة

مقرر المسابقة السادسة عشر

تفسير القرآن الكريم
الجـــزء السادس عشر

من كتاب
الإبريز في تفسير كتاب الله العزيز

يمكنكم الحصول على تفاصيل المسابقة وتنزيل نسخة إلكترونية من هذا المحتوى عبر موقع المدرستين على شبكة المعلومات العالمية

/https://areejquran.net

دعــوة من القلب

لأننا نحبكم في الله فإننا نوجه إليكم دعوة من القلب لخدمة دين الله تعالى من خلال المشاركة في نظام السهم الوقفي، أو الدعم المباشر للمبنى الوقفي، والبرامج التعليمية للمدرستين وذلك من خلال التواصل عبر الأرقام ٩٩٢٠٦٣١٥ – ٩٨٢١١٢١١ـ ٩٢٥٠٨٦١٣

سائلين المولى عز وجل أن يجعل إنفاقكم صدقة جارية في ميزان حسناتكم.

تفسير الجزء السادس عشر

تابع - تفسيرُ سورة الإسراء

١. تأويل ما لم يستطع موسى عليه السلام الصبر عليه

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَ أَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)﴾

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أي إنّ السفينة التي خرقتُها كانت لمحتاجين ضعفاء لا يملكون من المال ما يكفيهم، ولا يملكون ردّ ظالم عنهم. -وعند القطب؛ المسكين من له مال لا يكفيه ويمكن أن يُنزل منزل من لا شيء له أصلاً- يعملون بسفينتهم في البحر استجلابا للرزق فأردت أن أحدث فيها عيبا بخرقها؛ وفي هذا التصرف إتلاف لبعض المال لحفظ الباقي من باب ارتكاب أخف الضررين؛ كيلا يرغب فيها ملِك كافر متغلب كان أمامهم إذا وصلوا أو خلفهم إذا رجعوا يَأْخُذُ لنفسه تَمَلُّكًا، أو استعمالا لوقتٍ محدود كلّ سفينة صالحة غير معيبة عنوة وغصبا من أهلها ، و"الوراء" تأتي بمعنى الأمام أو الخلف، وقيل: هي هنا كناية عن التغلب. ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَ أَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي أما الغلام الذي قتلتُ فهو من أبوين مؤمنين وهو في علم الله كافر؛ -وقد علم العبد الصالح ذلك بوحي من الله ﷻ- فخشينا "الخشية" شدة الخوف من أمر متوقع حدوثه، أن يتبعاه في الكفر لشدة حبهما له، أو أنهما لا ينتصفان لمظلومه منه أو منه لإشراكه؛ وقتلُه كان قطعا لفساد في الأرض، وجلبًا لمصلحة حفظ الدين من جانب العدم، وسلامة لدين أبويه. وقتلُنا له كان بُغية أن يعوضهما الله به ولدا أحسن منه صلاحا، و أقرب منه رحمة وبرًّا بوالديه، ولعل الغلام كان بالغا، فقد يسمى البالغ غلاما، حتى لا يقال: كيف قتل صبيا غير مكلف؟ وعلى كلٍ فهذه حادثة

خاصة لا يقاس عليها ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ أي الجدار الذي أقمتُه بلا مقابل كان لغلامين يتيمين في القرية التي بها الجدار، وكان تحته ذهب وفضة للغلامين وهما دون البلوغ؛ لأنه لا يُتْمَ بعد البلوغ؛ و"الكنز" هو المال الذي يُدّخر ولا يؤدّى فيه حق الله؛ لقول الرسولﷺ:(كُلُّ مَالٍ لَا تُؤَدَّى زَكَاتُهُ فَهُوَ كَنْزٌ)[1]؛ قال القطب حلَّ الكنز لمن تقدّم أمةَ محمدﷺ وحرم على من هو منها ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أكرمهما الله بسبب صلاح أبيهما بأن حفظ لهما مالهما، فأراد أن يبلغا قوّتهما بالبلوغ وكمال العقل ثم يستخرجا كنزهما "رحمة" مفعول لأجله بمعنى ابتغاء رحمة الله بهما، وهذه من منافع الصلاح العاجلة، إذ يكون الصلاح سببا بإذن الله في حفظ المال والولد، ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ قول من العبد الصالح لموسى؛ فِعْلِي بالسفينة، وبالغلام، وبالجدار لم يكن من رأيي إنّما كان من وحي الله ﷻ؛ وهذا تفسير عواقب أفعالي التي لم تُطق عليها صبرا؛ وأشار إليها بالبعيد لعظمها.

ومن دقة التعبير في هذه الآيات أن العبد الصالح نسب خرق السفينة إلى نفسه فقال: فأردت أن أعيبها؛ لأن خرق السفينة وقع منه وحده، وأيضا من باب التأدب مع الله، لأن ظاهره أنه إفساد للسفينة بتعيبها، وعند ذكر الغلام لم يصرح بالنسبة إلى نفسه أو إلى الله بل قال: فخشينا، فأردنا ، لأن الفعل دائر بين الإصلاح والإفساد؛ إذ القتل من حيث هو قتل إفساد، ومن حيث ما يرجى ترتبه على قتل هذا الغلام هو مصلحة، وعند ذكر إقامة الجدار نسبه إلى الله فقال: فأراد ربك؛ لأنه صلاح محظ، ومع أنه لم يصرح بنسبة قتل الغلام إلى الله إلا أنه عند ذكر إبدال الأبوين خيراً منه نسبه إلى الله فقال: يبدلهما ربهما، وهذا منتهى الأدب مع الله في نسبة الخير وما فيه صلاح إليه دون ما ظاهره الشر أو الإفساد، وإن كان الله هو من أمره بكل ذلك.

[1] تيسير التفسير – امحمد بن يوسف أطفيش (١٣٣٢) إباضي (٥/ ٤٢٠، بترقيم الشاملة آليا)

٢. قصة ذي القرنين

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَ آتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨)﴾

قصة ذي القرنين هي القصة الرابعة في هذه السورة؛ وهدفها هدفُ السورة العقيدةُ والإيمانُ؛ وهي جوابٌ لسؤال من أسئلة المشركين رسولَ الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ يسألك المشركون بتوجيهٍ من أهل الكتاب اختبارًا لنبوتك؛ -أيها الرسول- عن ملِكٍ صالحٍ هو ذو القرنين مكّن الله له في الأرض فحكم بالعدل وأصلح؛ واختُلف في كونه نبيا أم وليًّا، لُقِّبَ بذلك لأنه طاف قَرْنَيْ الدنيا: المشرق والمغرب، وقيل: لأنه انقرض في أيامه قرنان من الناس ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ سأقص لكم عنه ما تتّعظون به وتعتبرون؛ وهو إذن من الله للرسولﷺ بأن يعدَهم بالجواب؛ وقد قال له من قبل: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ﴾ [سورة الكهف، الآية: ٢٣] ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَ آتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ يسرنا له السير في الأرض، وجعلنا له قدرة على التصرف فيها؛ و آتيناه كل أسباب ذلك من علم وقدرة وجنود أقوياء ذوي صنعة متقنة ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ وكان مُريدًا مغرب الشمس؛ فاتبع طريقا يوصله إليه مستغلاّ ما أعطاه الله من أسباب ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ المكان الذي يظهر فيه مغرب الشمس وهو منتهى الأرض من جهة المغرب ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ في عين اختلط ماؤها بالطين الأسود؛

"العَيْنُ" منبع الماء، "الحَمْأَةُ" الطين الأسود، وكان حاميا أي حارا، كما تدل له قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي و أبو بكر: حامية ، وقد ثبت علميا أن أقصى الغرب توجد حمم بركانية نشطة، ومن يشاهد مغيب الشمس هناك تبدو له كأنها تسقط في عين حامية، وهذا من إعجاز القرآن ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ غير مألوفين ولا معروفين في عقيدتهم وسِيَرِهِمْ؛ وهم كفار؛ وهذه هي حالهم وما لاقى معهم ذو القرنين ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ خيّره الله بين قتلهم ودعوتهم إلى الإيمان إحسانا إليهم ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ بإصراره على الشرك بعد تلَقّيهِ الدعوةَ إلى الإيمان ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ بالقتل في الدنيا ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ في الآخرة وهو عذاب النار ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ﴾ بالله بعد أن كان مشركا ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ مُتبعًا إيمانَه بالعمل الصالح ﴿فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ وهي الجنة في الآخرة، والجزاء الحسن على الفعل في الدنيا ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ "القول اليُسْرُ" هو القول الحسن الذي لا يثقل سماعه؛ والقصد أنه لا نكلّفُه إلاّ بما فيه يسرٌ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ طريقًا إلى المشرق ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ المكان الذي يظهر أنه مطلع الشمس؛ وهو أقصى الأرض من المشرق ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ﴾ عُرَاةٍ ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ ليس لهم ما يُظلّهم عن الشمس ؛ من جبال أو شجر أو بناء أو لباس؛ فكانوا إذا طلعت يلوذون بكهوف تحت الأرض أو يغوصون في المياه فإذا غربت يخرجون ﴿كَذَلِكَ﴾ هم كالقوم الذين وجدهم عند مغربها؛ كفارٌ؛ وقد خُيّر في قتلهم ودعوتهم للإيمان؛ فقتل المصرين على الكفر واستبقى الذين آمنوا؛ بمعنى أمره كذلك بأن يفعل فيهم ما فعل بأهل المغرب ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ من عظمة الملك؛ من جند وقوة وثروة ، وما لاقى مع الأقوام؛ وهي أكثر وأعظم مما أخبرناكم به؛ ولا يسعها إلا علم الله اللطيف الخبير الذي يعلم ظاهرها وما خفي فيها؛ فالله يعلم عنه كل ذلك أينما حل وارتحل.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي سلك طريقا معترضا بين المغرب والمشرق من مطلع الشمس نحو الشمال حيث الجبال الشاهقة ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ "السَّدُّ" الحاجز بين شيئين وهو هنا حاجز بين جبلين عظيمين سُدَّ ما بينهما، ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ إذ كانوا يتحدثون بلغة غريبة عن اللغات المعروفة؛ لا تُفهم إلاّ بترجمان غير تراجمة ذي القرنين، ثمّ إنهم لا يفهمون كلام غيرهم إلاّ بعسر وبُطء ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ كان قولهم –بواسطة مترجميهم- نداء المستغيث المضطر؛ ومن ندائهم له يتبين أنه كان معروفا في البلاد المتاخمة لبلاده ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ وهم قبيلتان عظيمتان من نسل

يافث بن نوح؛ قيل هم المغول والتتار ﴿مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بإهلاك الحرث والنسل؛ يخرجون في الربيع ولا يمُرُّون على رطب إلا أكلوه، ولا على يابس إلا حملوه ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ نخصص لك جزءا من المال ضريبة؟ و"الخرج" المال الذي يدُفع للملك ﴿عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ حاجزا يمنعنا عنهم؟ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ ما أعطاني الله من القوة والمال خير مما تجمعون لي من خراج ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ بالفعلة وبأيدي الرجال ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ "الردمُ" البناء المضاعف؛ أي سُدًّا مضاعفًا؛ ولعل ذا القرنين رأى بأن الردم خير من السدّ؛ لأن السد قد يتمكن المفسدون من تسلُّقه ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ أمرٌ للعَمَلَةِ بأن يُناولوه زبر الحديد لا أن يستجلبوها له؛ لأنه في غنًى عن الأموال كما قال لهم؛ و"الزبر" جمع زبرة وهي القطعة الكبيرة من الحديد ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ وهنا إيجاز حذف حيث أشعرت حتى بأن ثمة شيئا قبلها؛ أي فآتوه الزبروجعل يبني حتى صار البناء مساويًّا في علوه للصدفين؛ و"الصدفان" مفرده صدف وهو جانب الجبل ﴿قَالَ انْفُخُوا﴾ أي قال ذو القرنين للعملة انفخوا بالمنافيخ في زبر الحديد المبنية بين الجبلين مع الصخر ﴿حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ بأمره لهم أن ينفخوا صيَّر ذلك البناء كالنار في اللون والحرارة ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ وهذا قول منه للمهتمين بأمر النحاس و إذابته؛ فآتوه النحاس فصبَّه على الحديد المشتعل نارا ، والتصق بعضه ببعض وصارا جبلاً صلدا، و"القِطر" النحاس المذابُ ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ المفسدون لمّا حاولوا لم يستطيعوا أن يعلوا الردم لعلوه وملاسته ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ ولم يستطيعوا خرقه لسمكه وصلابته. وهكذا هدى الله ﷻ ذا القرنين إلى أن إضافة نسبة من النحاس إلى الحديد تضاعف من مقاومته وصلابته؛ وهذه الطريقة تستعمل حديثا لتقوية الحديد؛ فيا ليت المسلمين استفادوا من هذا العلم؛ وأولوا اهتماما لأسباب الصناعة المعدنية التي ملكها ذو القرنين وكانت سببا لتفوقه، ليكفوا أيديهم عن استيرادها من عدوهم الذي تمكن منهم بتفوقه في أمثال هذه الصناعات ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ وهذا القول من ذي القرنين، وقوله: "هذا" إشارة إلى البناء الذي شيده مانعا به يأجوج ومأجوج من الإفساد فهو رحمة من الله بالناس ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ بخروج يأجوج ومأجوج من وراء السد وبقيام الساعة ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ يجعل الله ذلك البناء الصلد مدكوكا مُسوًّى بالأرض ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ وعد الله المعهود ثابت وو اقع لا محالة؛ فقد تبرأ ذو القرنين من قوته

ونسب القوة لله ﷻ، ولم يتملكه البطر والعجب بقوته وبإنجازه العظيم؛ بل شكر الله وأعلن بما يؤمن به من قيام الساعة ودكِّ الجبال. وبهذا التذييل انتهى كلام ذي القرنين و انتهى الحديث عن قصته.

٣. جهنم جزاء الكافرين

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَ اتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦)﴾

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ أي ياجوج وماجوج ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم بُني السدّ، أو يوم يُسوى بالأرض فيخرجون ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي جعلناهم مضطربين فيما بينهم يتسلط قويهم على ضعيفهم لما منعوا بالسد عن الغارات على غيرهم، أو يموج بعضهم في بعض لكثرتهم يوم يهدم السد ويخرجون ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ النفخة الثانية للبعث ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ على صعيد واحد لم يتخلف منهم أحد؛ وعُرضَت هذه الصورة تقريبا للأفهام ولخيال المشركين؛ ذكر الجمع للحشر إثر ذكر تموج القوم؛ على أن الله القادر على جمع أمة كاملة وراء السد؛ قادر على جمع الناس يوم الحشر ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ خص الكافرين بعرض النار عليهم؛ يرونها ويسمعون زفيرها وحسيسها ليعلموا أنها مصيرهم وأنهم معاقبون بها ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ كانوا لا ينتفعون بأبصارهم في التفكر و إبصار دلائل قدرة الله وتفرده بالألوهية ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ لشدة كفرهم لا يطيقون سماع آيات الله التي توصلهم إلى الإيمان به؛ نَعَتَ الكافرين بـ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ تنبيها بأن مضمون الصلة سبب به يَصْلَون جهنم ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ سؤال استنكاري أُريد به التوبيخ والإنكار؛ أي هل يظن الذين كفروا أن يتخذوا الملائكة وعيسى وعزيرا معبودين من دون الله ثمّ ينفعهم ذلك؟ والجواب ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ وهذا زيادة في الإنكار عليهم بأن جزاءهم على ذلك عذاب

جهنم منزلاً؛ أي هيأنا جهنم ضيافة لهم؛ تهكما بهم لأنهم حسبوا عبادتهم تلك خيرا لهم فكانت عليهم وبالا لا يجدون عنها محيصا أو ملجأ ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ الأمر موجه إلى الرسول ﷺ أي قل يا محمد والمؤمنون معك للكفار ولأهل الكتاب –توبيخا لهم- والأمر بالقول للإشعار بأهمية المقول؛ أي هل ننبئكم بأخسر الناس أعمالا عند الله؟ تلميح لهم بأنهم المقصودون ليكتشفوا ذلك بأنفسهم فيروعهم ذلك ويرتدعوا ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الذين بطلت أعمالهم في الحياة الدنيا؛ لأن الكفر لا تنفع معه الطاعة ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ في حال خيبة سعيهم هم يظنون أنهم محسنون وأنهم ناجون بأعمالهم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ كفروا بآيات الله القرآنية و آياته الكونية؛ وكفروا بالبعث والحساب والجزاء؛ فأُبطلت بذلك أعمالهم التي حسبوا أنها ستنفعهم؛ لكن بكفرهم لا ينفعهم العمل ولو كان صالحا ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ لا اعتبار لهم ولا قَدْرَ عند الله يوم القيامة ولا وزن لأعمالهم لأنها صارت –بكفرهم- هباء منثورا ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَ اتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ ذلك الجزاء المعد لهم بسبب إحباط أعمالهم لأنهم كفروا واستخفوا بآيات الله هو نار جهنم.

٤. الجنة جزاء المؤمنين، وبيان سعة علم الله، والدعوة إلى توحيده

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾

من عادة القرآن أن يذكر البشارة بعد الإنذار؛ فجاء مقابل ﴿إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلًا﴾ جزاء المؤمنين ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ صدقوا بالله و آياته وصدّقوا رسله وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بإتيان الفرائض والسنن وترك المعاصي ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ وهي أعلى الجنان وأوسطها و"الفردوس" البستان الملتف الأشجار الجامع لأنواع الفاكهة."كَانَتْ" لهم بوعد الله في الأزل؛ وقد جاء بلام الاستحقاق في "لَهُمْ" تكريما لهم أي لأنهم استحقوها بأعمالهم الصالحة؛ كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي

أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢] ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أنهم في الجنات خالدون أبدا لا يخشون زوالها ولا يطلبون سواها ليتحولوا عنها لأنهم لا يرون ولا يجدون أحسن منها ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ قل-أيها الرسول- لمن استبعد عقلُه شيئا مما ذكر من أمر الجنة إن قدرة الله التامة أوسع؛ ومنه علمه؛ فلو كانت كل بحار الدنيا مدادا يُكتب به علم الله ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ لانتهت البحار قبل انتهاء كلمات الله؛ ولو أمددناها بمثلها مدادا لنفدت أيضا قبل نفاد كلماته. وفي الآية دليل على ثبوت صفة الكلام لله، إلا أنها صفة لا يعلم حقيقتها وكيفيتها إلا الله، وليست هي صوتا يباين الذات العلية؛ لما في ذلك من تشبيه الله تعالى بخلقه الذين يتكلمون بصوت ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ يرجو لقاء الله ويطمع في ثوابه؛ حَصَرَ الرسول ﷺ في صفة هي كونه بشرا دفعا عنه لاقتراحهم منه ما لا يكون من بشر ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾ وقد أكرمني بالوحي؛ وليس من مقتضى رسالتي أن أحيط بكل شيء علما إلاّ ما كان من وحي الله ﷻ؛ وقد أوحى إلي ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وحَصَرَ الألوهية في الله تنزيلا لهم -لعدم إيمانهم بالقرآن- منزلة من ينفي عن الله الألوهية ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ يأمل فيما يسرّهُ مستقبلا عند البعث وما بعده من حسن الثواب عند الله والأمن من عقابه في الآخرة، ولقاء ربه: لقاء الثواب على العمل ﴿فَلْيَعْمَلْ﴾ لأجل أن ينال مبتغاه ﴿عَمَلًا صَالِحًا﴾ موافقا لشرع الله يرضيه به ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ كفعل المشركين الذين يعبدون أصناما أو النصارى المشركين عيسى عليه السلام في عبادة الله ﷻ. والآية تدل أنه لا اعتبار – عند الله- لعمل إلاّ إن كان جامعا بين أمرين؛ أن يكون عملا صالحا، وأن يكون مُخْلَصًا لله ﷻ، وقد روى الربيع من طريق أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تبارك وتعالي من عمل عملا أشرك فيه غيري فهو له كله و أنا أغنى الشركاء عن الشرك»[٢]

سورة مريم

تعريف بالسورة: هي سورة مكية ما عدا الآيتين الإحدى والسبعين والثامنة والخمسين فهما مدنيتان، وعدد آياتها ثمان وتسعون آية، نزلت بعد سورة "فاطر" وترتيبها التاسعة عشر في المصحف الشريف وقد سميت بـ: سورة مريم تخليدا لولادة مريم وتشأتها، ولمعجزة خلق عيسى بن مريم من غير

[٢] رواه الربيع من طريق أبي هريرة، ب: في ذكر الشرك والكفر، ر:٦٠، (٣٤/١).

أب وما صاحبها من معجزات، وقد اشتملت السورة على ثلاثة محاور أساسية هي: إثبات الوجود والوحدانية لله تعالى، وتنزيهه جل وعلا عما لا يليق به، و إثبات البعث والجزاء، كما تعرضت لبيان منهج المهتدين ومنهج الضالين ومصيرهم، وفتح باب التوبة للمقلعين عن إنكارهم وتكذيبهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

٥. ذكر قدرة الله تعالى في استجابته لدعاء زكرياء عليه السلام

﴿كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١) يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٣)﴾.

﴿كهيعص﴾ حروف مقطعة ابتدِئت بها عدة سوروغالبا ما يليها ذكر القرآن أو الوحي، ومما قيل في معناها أن فيها تحدّيا للجاحدين بأن يأتوا بمثل القرآن مع أنه مُركَّب من نفس الحروف التي يستعملونها في كتاباتهم وأشعارهم، ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ أي هذا المتلوُّعليك يا محمد ذكر رحمة ربك بعبده زكريا، ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ حين دعا ربه بدعاء خفي؛ لأن الإسرار في الدعاء أضمن للإخلاص؛ وعُبِّرعنه بالنداء مع أنه كان خفِيّا لأن الدعاء في الغالب يكون جهرا، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ قال ربّ إني قد ضعف عظمي، وقد عبّرعن كِبره بضعف العظام لأن ضعفها ضعف للبدن، والوهن هو الضعف، ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ انتشر الشيب في الرأس انتشارا بالغا، وفيه

استعارة، لأن أصل الاشتعال للنار ونحوها، فاستعير لانتشار الشيب في شعر الرأس

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي لم تردّني خائبا في دعاءٍ دعوتك به؛ وفي استعمال زكرياء عليه السلام لفظ الربوبية في قوله: "بِدُعَائِكَ رَبِّ" إشارة إلى الإنعام السابق الذي حظي به في كنف الكريم، وهذا التلطف في الدعاء مظنة للاستجابة، ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ أي خشيت أن يُضيّع قرابتي أمانة الدين من بعدي، ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ وكانت امرأتي ممن لا يلدن لكبرها أو لعقمها؛ أي فارزقني من محض فضلك ولداً صالحاً يتولاني ويرعى أمري، ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ يرث مني ومن آل يعقوب النبوّة وأمانة العلم والدين، ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي واجعل هذا المولود مرضيًا عندك وعند عبادك، ونستخلص مما مرّ فائدة في الدعاء وهي أن زكرياء عليه السلام عند دعائه ربّه قدم ثلاثة من آداب الدعاء وهي: إظهار الضعف والاحتياج، والاعتراف بفضل الله عليه وإجابته لدعواته، واستظهار الغرض النبيل من دعائه وهو الرغبة في نصرة دين الله واستمراره في هذه المعمورة؛ فكانت من الله الإجابة لدعائه رغم صعوبة تحقق ما طلب و اقعا ولا صعب مع الله؛ فأجابه الله مبشّرا ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ يا زكرياء إنا نبشرك بواسطة الملائكة بغلام أسميناه يحيى لقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ [آل عمران: ٣٩]، ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ لم يُسمَّ بهذا الاسم أحد من قبل، وقيل لم نجعل لهذا الاسم من قبل مثيلا في الفضل والكمال، ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ قال: -متعجبا لعظم العطية التي أُعطِيَها- كيف يكون لي غلام؟ ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ وكيف تلد امرأتي الآن مع كبرها ولم تكن تلد من قبلُ في سن الإنجاب؟ ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أي بلغتُ من الكبر نهاية العمر، والعِتِيُّ هو النهاية في الكبر واليبس، ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ فأجابه الله تعالى بقوله: هكذا قَدَّر ربك أن يخلق مولودا من شيخين هَرِمين وهو عليه سهل وقد خلقك من قبل وكنت معدوما، فقبل أن تَعجَب من ميلاد يحيى في الكبر تَفكّر في خلقك من قبل من العدم، ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ قال رب اجعل لي علامة على حصول الحمل المبشَّر به، ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ قال علامة تحقق البشارة أن لا تقدر على الكلام ثلاثة أيام بلياليهن وهذا جمعا بين هذه الآية وقوله في سورة آل عمران: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ الناس ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ

رَمْزاً﴾ [آل عمران: ٤١] وفي تفسير "سَوِيًّا" وجهان فإن كان حالا من ضمير المخاطب يكون المعنى: أي لا تقدر على كلام الناس و أنت سوي الخلقة لا تعاني من علة كالخرس أو غيره، وإن كان "سَوِيًّا" وصفا لليالي يكون المعنى ثلاث ليال كاملة بأيامها، ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فخرج على قومه من المصلّى فأشار إليهم أن سبحوا الله في أول النهار وآخره؛ ليشاركوه شكر النعمة التي أنعم الله بها عليه وعليهم، وقد يراد بالذكر طرفي النهار استغراق اليوم كله بالذكر والتسبيح، وَالْمِحْرَابُ هو المكان المخَصَّصُ لِلْعِبَادَةِ الْخَاصَّةِ. ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ يا يحيى خذ التوراة بجدّ وحزم بالاعتناء بها حفظا وفهما وتطبيقا، ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ وأعطيناه رجاحة العقل وحسن التدبير والحكمة منذ صباه وصغره، وقيل آتيناه النبوة منذ الصغر ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا﴾ وألقينا محبته عند الناس أو جعلنا حب الله في قلبه، وقيل بأن الحنان هو الشفقة والرحمة، ﴿وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ وتزكية منا له من الصفات الذميمة، وكان خائفا من الله طاهرا نقيا من المعاصي. ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ أي وجعلناه محسنا إلى والديه مطيعا لهما، ولم يكن متكبراً على الحق متطاولا عن الخلق ولا عاصياً لربه ولا والديه. ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ سلام وأمان على يحيى من الله يوم ميلاده، ويوم موته، ويوم بعثه حيًا، وفي هذا إشارة أنه في عناية الله في مواطن الحاجة والضعف، أو هو في عناية الله من ميلاده إلى بعثه، وقد يكون السلام من الله بمعنى الثناء.

٦. ذكر قدرة الله في خلقه عيسى عليه السلام ونفي الولد عن الله سبحانه

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ

عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦)﴾.

ينتقل بنا الحديث إلى ذكر قصّة مريم وهي أعجب من سابقتها من حيث إن خلق يحيى عليه السلام كان من أب هَرِمٍ وأم عاقر أمّا خلق عيسى عليه السلام فقد كان من دون أب.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ واذكر يا محمد في القرآن قصة مريم إذ اعتزلت أهلها، وآوَت إلى مكان مما يلي الشرق عنهم، ومعنى انْتَبَذَتْ: اِنفَرَدَت واعتَزَلَت. والمراد مكاناً شرقياً من بيت المقدس ، أو من دارها تختلى به للعبادة ، معتزلة عن الناس ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ فجعلت لها حاجزا وستارا يسترها عنهم، فأرسلنا إليها مَلَكا في صورة إنسان تامّ الخلق، والرّوح: هو الملَك وقيل بأنه جبريل. ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ قالت إني ألتجئ إلى الرحمن ليعصمني من أن تنالني بسوء إن كنت متقيا لله، وقد استجارت باسم الله "الرحمن" طلبا للرحمة من أن تصاب بمكروه، وفي قولها "إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا" تذكير للمَلَك بأنه ليس من شأن المتقي إلحاق الضرر بغيره. ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ فقال لها الملَك: إنما أنا رسول ربك الذي التجأت إليه؛ وقد أرسلني إليك لأتسبب في هبة غلام لك يكون طاهرا من الذنوب صالحا خَيِّرا. ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ قالت مريم: كيف يكون لي غلام، ولم يباشرني رجل عن طريق زواج بالحلال، ولا عن طريق زنى إذ لست ببغي؟ ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ فقال لها الملَك: هكذا قَدّر ربُّكِ أن يكون لكِ غلام دون مسٍّ من ذَكَر وهو سَهل عليه؛ وليكون دليلا للناس وعلامة على قدرة الله، ورحمة

بقومه بنبوته وهدايته لهم، ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ وكان خلق عيسى بهذه الكيفية قضاء سابقا وأمرا نافذا لا مردّ له. ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ فحملت بالغلام، فاعتزلت به إلى مكان بعيد عن الناس. ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ فألجأها وجع الولادة إلى جذع النخلة لتستند إليه أو تستتر به عند الولادة، فقالت: يا ليت الموت قضى عليّ قبل هذا اليوم، وقد يعود "قَبْلَ هَذَا" إلى الحمل فيكون المعنى: ليتني متُّ قبل هذا الحمل؛ فتموت شريفة لا يلحق عرضها قالَةُ الناس بخلاف موتها وهي حامل أو بمولود. ﴿وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾ وكنت شيئًا متروكا مُهْمَلا لا يُذْكَر. ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ فَناداها جبريل أو عيسى بعد ولادته مِنْ تَحْتِها: أن لا تَحزني فقد جعل ربك تحتك جَدْول ماء، وقيل بأن السريّ هو الرجل العظيم الخصال وذو الشأن والقَدْر وقيل ذو السخاء والمروءة، والمقصود به عيسى عليه السلام. ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ وحَرِّكي إليك جذع النخلة تُساقط عليك رُطبًا غَضًّا طريًّا، حديث الجَنْيِ فيكون طعمه أطيب، وَالرُّطَبُ: هو التّمر الذي لم يتِمَّ جفَافه. وفي هذه الآية إشارة إلى العناية باتخاذ الأسباب؛ فلو أعْفي أحد من اتخاذ الأسباب لكانت مريم في حال نفاسها أولى الناس بذلك ومع ذلك قيل لها: "وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ". ولم يسقط عليها الرطب بدون هز ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ فكلي من الرطب، واشربي من ماء الجدول، وطيبي نفسًا بما أعطاك الله ولا تجزعي، فإن رأيت من الناس أحدًا واستفسر عن حالك فأخبريه تكليما أو إشارة: أنّي ألزمت نفسي السكوت لله، فلن أكلم اليوم أيَّ إنسيّ. ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ فأتت مريم بمولودها إلى قومها تحمله، فلما رأوه قالوا لها: يا مريم لقد جئت أمرًا شنيعا بالِغ السُّوء، ولم تكن لتأتي به قومها إلا وهي مطمئنة أن الله سيحمي مولودها ويبرئها، ونادوها بـ: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ إمعانا في التقريع فهارون رجل صالح آنذاك وقد كانت مريم تضاهيه في العبادة والصلاح، والأُخُوَّة المرادة هنا دينية، ويحتمل أن يكون لمريم أخ حقيقي وكان صالحا فخاطبوها بالإضافة إليه إمعانا في التوبيخ، بمعنى لا ينبغي لأختِ مِثْلِه أن تأتي بما أتيتِ يا مريم، ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ ما كان أبوك سيئ الخُلُق يأتي الفواحش ولا كانت أمك فاسقة تأتي البغاء والمراد: أنتِ من بيت طهر وعفاف فكيف أتيت بمثل هذا

الجُرم؟ ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ فأشارت مريم إلى المولود أن كلّموه، فقالوا متعجبين: كيف نكلم من لا يزال صبيا في المهد رضيعا؟ والمهد فراش الصبي الرضيع. ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فقال لهم عيسى وهو في المهد: إنّي عبد الله، أعطاني الكتاب وجعلني نبيًا، وهذا باعتبار ما سيكون، فقَدَرُالله نافذ، ومن الطريف أن تكون أول عبارة يخاطب بها قومه الذين ألّهوه فيما بعد تُثبت عبوديته لله سبحانه وتعالى. ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ وجعلني عَميم الخيروالنفع حيثما وَلَّيتُ، وكلّفني بالمعاهدة والمحافظة على الصلاة والزكاة طول حياتي. ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ وجعلني بارًّا بوالدتي ولم يجعلني غامطا لحقوق الغير عاقًّا متكبرًا شقيا بمعصية ربّه. ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ والسلام والأمان عليَّ من الله يوم ميلادي ويوم موتي ويوم بَعْثي حيًّا، وفيه إشارة إلى أنه في معيّة الله وعنايته في مواطن الحاجة والضعف، أو في حياته كلها، وقد يكون السلام من الله بمعنى الثناء والتكريم، كما أن في الآية ردًّا على النصارى بأن عيسى عليه السلام بشر يموت ويبعث كغيره من عباد الله. ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ذلك المتقدمة قصته والموصوف بالصفات الجليلة هو عيسى ابن مريم، وهو قول الحق الذي يشك فيه اليهود والنصارى. ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ لا يليق بالله سبحانه أن يتخذ من عباده ولدًا؛ فهو مُنزَّه عن ذلك، فإذا أراد أمرًا كان كما أراده. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ وقال عيسى لقومه: وإن الله الذي أعبده هو ربي وربكم فاعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا هذا هو الطريق المستقيم في العبادة.

٧. اختلاف المشركين في شأن عيسى عليه السلام وبيان سوء عاقبة الكافرين

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٨) وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠)﴾.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فاختلف الأحزاب من أهل الكتاب في أمر عيسى عليه السلام فمن النصارى من زعم بأنه هو الله ومنهم مَن زعم بأنه ابن الله ومن قال بأنه ثالث ثلاثة، ومن اليهود من قال بأنه ساحر، ومَنْ قال بأنه ابن زنى، فويل لهم ولكلّ كافر من شهود يوم القيامة العظيم الهول والحساب. ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي أعجِب بحال الكفار عند بعثهم للحساب، فما أشدّ قوة سمعهم و إبصارهم للحق الذي كانوا عنه صُمّا عُميًا في الحياة الدنيا، أو لِمَا يكرهون يوم القيامة؛ وبما سبق من بيان ترقّبهم لسوء الحال يوم القيامة قد يُظنّ أنهم في سعة في الحياة الدنيا فيستدرك ذلك بقوله: ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ فبيَّن أنهم اليوم في ضياع واضطراب والتباس حال، ونُكّر لفظ ضلال لبيان شدة ضلالهم لإهمالهم إعمال سمعهم و أبصارهم. ﴿وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ و أنذر المسيئين وخوّفهم -أيها الرسول- بقدوم يوم الندامة الشديدة حين يقضي الله بالفصل بين الخلق ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، وهم في غفلة وذهولٍ عن هذا اليوم، بل هم مكذِّبون به؛ وقد استعمل صيغة المضارع في "لَا يُؤْمِنُونَ" لدلالتها على استمرارهم في عدم الإيمان وتمكُّن الكفر منهم، وسُمّي بيوم الحسرة لكثرة ما يتحسّر فيه المسيئون على تفريطهم في أسباب النجاة. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أي إلينا يرجع مآل الأرض وكلّ مَن عليها من البشر وغيرهم، والمتحدّث هو الله، ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ وإلينا يصيرون ليجازوا على أعمالهم، وتقديم "إلينا" في "وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ" يفيد القصر أي لا يرجعون إلى غيرنا؛ ففيه من التهديد للمشركين ما لا يخفى، أي لا مفرّ لهم من قبضة الله وحسابه وعقابه.

٨. ذكر قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا

تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥)﴾.

بعد ذكرِ قصة مريم وما وقع من النصارى من اختلاف في شأن عيسى وتأليهه؛ أعقب ذلك بقصة إبراهيم عليه السلام وما كان عليه من التوحيد ونبذِ الأصنام التي اتخذها قومه، ليبيّن أن مقصد الأنبياء واحد وأن الشرك ملّة واحدة فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ واذكر يا محمد لقومك في هذا القرآن قصة إبراهيم عليه السلام، إنه كان ملازماً للصدق، وكان نبيا، والغرضُ من إيراد هذه القصة تنبيه العرب -الذين يزعمون الانتساب إلى إبراهيم عليه السلام- إلى أنه كان على التوحيد الذي يدعوهم إليه الرسول محمد ﷺ. ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ أي اذكر إبراهيم حين نادى أباه بنداء الأبوة "يَا أَبَتِ" عساه يستميله إلى الإيمان والهداية فقال: لِمَ تعبد من الأحجار ما لا يسمع دعاءك ولا ثناءك عليه ولا غير ذلك من الأصوات، ولا يبصر خضوعك ولا خشوعك، ولا يردّ عنك ضرّا ولا يجلب لك نفعا؟ وتلك حجة عقلية على أبيه، ثم أردفها بالحجة النقلية فقال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ يا أبتِ، إن الله آتاني من عِلم الدين ما لم يؤتك، فاقبل نُصحي و اتبعني فيما أدعوك إليه، أرْشِدْك إلى الطّريق المستقيم طريق الهداية والنجاة، ولم يصِف إبراهيمُ أباه بالجهل الشّديد لعبادته الأصنام ولا وصفَ نفسه بالعلم الكبير و إنما وصف ما بينهما من تباين بأرفق أسلوب عسى أبوه يذكّر ويقبل النصح ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ يا أبت لا تعبد الشيطان بِطاعته في عبادة الأصنام، إن الشيطان شديد العصيان لربه؛ وقد استعمل للدلالة على هذا المعنى صيغة المبالغة "عَصِيًّا" مع اقترانها بـ: "كَانَ" للدلالة على شدة عصيانه ومداومته عليه، ومن كان هذا شأنه فلا شك أنه يجرّ من يتبعه إلى الحرمان من رحمة الله. ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ يا أبت إني أخاف أن يُؤَدِّي بك التمادي في غيّك إلى أن يلحقك عذاب من الرحمن؛ فتكون قرينًا للشيطان في عذاب النار، وقد استعمل اسم الله "الرَّحْمَنِ" للدّلالة على أن الشرك والبقاء على الكفر جرم فظيع؛ فمن يوصف بالرحمة لا يعاقِب إلا لارتكاب أمرٍ جسيم، وفي قوله: "إِنِّي

أَخَافُ" دليلٌ على شدّة رغبة إبراهيم في هداية أبيه، وَالْوَلِيُّ: هو صاحب الإنسان ومن حالُهُما واحدة، وقد كُنّي بالولاية في الآية عمّن ينتظرهما نفس المصير. ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ فأجابه أبوه باستفهام إنكاري قائلا: أمُعرِض ومُستغنٍ أنت عن عبادة آلهتي يا إبراهيم؟ ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ لئن لم تتوقف وتقلع عن مفارقة ديننا ومخالفتي في عبادة آلهتي؛ لأرجمنك بالحجارة، والرجم يُستعمل كناية عن القتل رميا بالحجارة، ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ ابتعد عنّي و اقطع علاقتك بي زمانا طويلا، وقد كان أسلوب الأب فظًّا مقارنة بأدب الابن واستعطافه حيث قال: "وَاهْجُرْنِي" ولم يقل: أهجرك، ليتضمن كلامه معنى الطردِ الأبلغ في الإذلال والإهانة، كما استعمل الفظاظة في ندائه "يا إبراهيم" عِوضًا عن "يا بُني" المقابلة لـ: "يَا أَبَتِ" الحاوية معاني اللطف والاستعطاف. ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ قال إبراهيم عليه السلام أُسلِّم عليك سلام موادعةٍ و إبدال للسيئة بالحسنة فلن تَرى مني ما تكره، ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ سأدعو الله لك بالمغفرة والهداية والتوفيق للتوبة، -إذ لم يكن إبراهيم آنذاك قد نهي عن الاستغفار للمشركين- إن ربي كان بي رؤوفًا مبالغا في اللطف والعناية. ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ وأرحل عنكم و أترككم وأصنامكم التي تعبدون من دون الله، وأدعو ربي وأعبده وحده عسى أن لا أشقى بدعاء ربي وعبادتِه شقاءَكم بعبادة الأصنام، و انصرف سيدنا إبراهيم ولسان حاله يقول: لا يضرّني الهجران في ذات الله و ابتغاء مرضاته. فكافأه الله وعوَّضه خيرا مما ترك حيث قال عنه: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ فلما هاجر عنهم وتركهم وآلهتهم التي يعبدون من دون الله أبدلناه بقومه أولادا أطهارا وهُم إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب بن إسحاق وجعلنا كليهما نبيّين. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ أي آتينا إبراهيم وإسحاق ويعقوب من واسع رحمتنا، وقيل بأن الرحمة هنا هي الخير الدنيوي الشامل للمال والولد والعلم وغيره، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ وجعلنا لهم ذكرًا طيّبًا وثناء حسنًا باقيا في الناس إلى قيام الساعة.

٩. ذكر مجموعة من الأنبياء الصالحين وأوصافهم

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ

صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨)﴾.

يواصل السياق في إطار محاجة المشركين بإيراد نماذج لأنبياء ورسل أخلصوا العبادة لله وأسلموا وجههم له فيبتَدئُهم بموسى عليه السلام فيقول: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ واذكر يا محمد في القرآن موسى؛ إنه كان مصطفًى من الله مختارا كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، أو مخلِصا عبادته لله وحده في قراءة "مُخْلِصًا" بكسر اللام، ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا) وكان من الرسل والأنبياء[٣] الذين اصطفاهم الله برسالته، وإعادة ذِكرِ "كَانَ" تفيد تفخيم شأن المذكور وهو موسى عليه السلام في هذا السياق. أي من الرسل الكبار، والأنبياء الأطهار، فجمع الله له بين الوصفين الجليلين. ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ وناديناموسى بأن خلقنا صوتا سمعه من الجهة اليمنى من ناحية جبل الطور، وقيل بأن النداء كان بلا صوت ففهمه موسى بجسده، وقربناه تقريب تشريف بمناجاتنا له، والمناجاة هي المحادثة سِرّا واستعملت هنا لأنه لم يطّلع أحد غير موسى عليه السلام على ذلك النداء. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ ووهبنا لموسى من جملة رحمتنا به أخاه هارون نبيًّا معه يؤيّده ويعينه ويؤازره. ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ واذكر يا محمد في القرآن قصة سيدنا إسماعيل عليه السلام إِنَّهُ كانَ صادِقًا في وَعْدِه شديد الوفاء به، ومن أمثلة ذلك وفاؤه بوعده لأبيه في قضية ذبحه حين قال: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ وكان ممن اِصطُفي بالرسالة والنبوة إكراما له. ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ وكان يحثّ أهله على إقام الصلاة و إيتاء الزكاة وطاعة الله عموما، وقيل بأن في تخصيص الأهل بالأمر بالصلاة والزكاة مع أنه

[٣] اعتمد القول القائل بعدم التفرقة بين النبي والرسول باعتبار أن كليهما مرسل إلى قومه ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾ [الحج: ٥٢] فالله حكى الإرسال لكلا الوصفين: النبي والرسول.

نبي مرسل إشارة إلى أنه كان يبدأ بهم في الدعوة والإصلاح ليكونوا قُدوة لمن سِواهم، وقيل بأن الأهل هم كلُّ مَن يلزم الرسول التبليغ له من أُمّته، ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ وكان مرضيَّ العمل عند ربه غير مقصّر فيما أُمِر به. ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ واذكر يا محمد في القرآن إدريس إنه كان ملازماً للصدق في قوله وعمله، أوكان شديد التصديق واليقين بآيات الله، وكان ممن اصطفاه الله بالنبوة. ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ وقد أعلى الله قدره وشأنه بالنبوة والقرب منه. وبعد ثناء الله ﷻ على كل رسول ممن تقدم بما يخصّه بيّن ما يشملهم من صفات فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ إشارة إلى من تقدم ذِكره في هذه السورة ممّن أنعم الله عليهم بشرف النبوة من ذرية آدم وقيل بأن المراد به هنا: إدريس، ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ قيل بأنه إبراهيم بن سام بن نوح، ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾ قيل بأنهم إسماعيل وإسحاق ويعقوب، وَإِسْرائِيلَ هو يعقوب. وقيل بأن ما تقدم من وصف يشمل جنس الأنبياء جميعهم ولا يقتصر على من مرّ ذكره، ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ وممَّن هدينا للحق واخترنا للرسالة والنبُوَّة، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن الحاوية لتوحيده وحججه وبراهينه وشرائعه سجدوا خاضعين لله وأمرِه باكين من خشيته.

١٠. ذكر فتح باب التوبة لمن خالف منهج الأنبياء وما أعد للتائبين في الجنة

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣) وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾.

ثم يعرّج على ذكر صفات خلف جاؤوا بعد أولئك الأطهار ويبيّن مصيرهم فيقول: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ فجاء من بعد الأنبياء المذكورين من أضاع الصلاة

بتركها، أو تفويت وقتها، أو الإخلال بشروطها، وأطاعوا نفوسهم فيما تمليه عليهم من إتيان المحرمات، والخَلْفُ بتسكين اللام هُم العقِب السيئ، وبفتح اللام العقِب الصالح، ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ فسوف يلقون شرًّا وضلالا وخسارا بجهنم، والغيّ هو الضلال وقد يطلق على الشر. ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ إلا مَن تاب منهم مِن خطاياه وآمن حَقَّ الإيمان وبدّل بالعمل السيئ الصالحَ تصديقًا لتوبته، فأولئك تُقبَل توبتهم، ويدخلون الجنة ولا يُنقَص من أعمالهم الصالحة شيئًا. وقد جيء بلفظ "شَيئاً" في سياق النفي لإفادة نفي أيّ نقص أو إجحاف يُتخيّل في حقهم وذلك ترغيبا لهم في التوبة. ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ جنات الخُلْدِ التي وعد الرحمن بها عباده المتقين بالغيب؛ إذ آمَنوا بها دون أن يروها، ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ إن وعد الله عباده بالجنة آتٍ يقينا من دون شك، أو إن المتقين آتون الجنة قطعًا لصدق وعد الله. ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ لا يسمعون فيها إلا الطيّب من الكلام وقد نُفي سماع اللغو وهو فضول الكلام وما لا طائل من ورائه لينتفي ما سواه من المنغّصات من باب أولى، وقيل بأن اللغو هو المنكر من الكلام، والسلام اسم جامع لكل خير والمخاطَب بالسّلام لا يَسمع إلا ما يحبّ، ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ولأهل الجنة من الطعام والشراب ما شاؤوا دون انقطاع؛ والمراد بذكر البُكرة والعَشيّ استغراق جميع الأوقات. ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ تلك الجنة الموصوفة بما تقدم، مخصصة لعبادنا المتقين لا سواهم، واستعمال لفظ "نُورِثُ" يفيد تحقّق الملكيّة واستقرارها بالإرث بخلاف التمليك بالهبة أو البيع اللذين يمكن فيهما الفسخ والتراجع.

وفي الآية دليل على أن جنة الخلد لا يفوزبها إلا المتقون الذين جمعوا بين الإيمان الصادق والعمل الصالح.

لما استبطأ محمد ﷺ نزول جبريل جاءت هذه الآية بيانا لذلك ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ وقل -يا جبريل- للرسول محمد ﷺ: وما نتنزل -نحن الملائكة- إلا بإذن الله وأمرِه لنا، فهو المتحكم في كل تصرفاتنا فله الأمر كلّه، وما كان ربك ناسيك وتاركا لك كما ادّعى كفار قريش، أو ما كان ربك ناسيًا لشيء من أفعال العباد. ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ هو الله ربّ السموات وربّ الأرض وربّ ما بينهما، والمقصود ربّ كل

شيء وخالقه ومسيّره؛ فاعبده يا محمّد وجاهد نفسك في عبادته، والاصطبار هو الصبر الشديد على ما شق على النفس، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ هل تعلم لرب العالمين، مماثلا أو مشابها يستحق العبادة؟!

١١. بيان مصير منكري البعث ونجاة المتقين

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا(٧٢)﴾.

بعد أن أمر الله سبحانه عباده بعبادته والمصابرة عليها، أورد شبهة إنكار المكذبين للبعث وردّ عليها فقال: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ ويقول الكافر المنكر للبعث متعجّبًا أَوَأُخرَجُ بعد موتي وفنائي من قبري حيًا؟! ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ ألا يَتذكّر هذا الجاحد خَلقَه الأول بعد أن كان معدوما؟ والمعنى لو تفكّر في خلقه أوّل مرة لما طرح هذا السؤال! ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ فوربك -أيها الرسول- لنجمعن هؤلاء المنكرين للبعث مع الشياطين يوم القيامة، ثم لنأتين بهم حول جهنم باركين على رُكَبِهم; لا يستطيعون قِيَاما لهَول ما هم فيه. وفي عطف الشياطين على منكري البعث إشارة إلى أن اتّباعهم للشياطين هو سبب ما هم فيه، كما أن فيه إهانة لهم بقرنهم بأخسّ خلق، تبعوه فأرداهم، و"ثُمَّ" في قوله: "ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ" للمهلة الرتبية لا للمهلة الزمنية أي والأعظم مما تقدم ما سيأتي، وسيتكرر هذا في قوله: "ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ..." وقوله: "ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ..." وقوله: "ثُمَّ نُنَجِّي...". ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ ثم الأعظم من ذلك أننا لنأخذنَّ أو نخرجنَّ مِن كل طائفة أشدَّهم عصيانًا لله وتمردًا على أوامره، فنبدأ بعذابهم ثم نعقبهم بمن دونهم، والشيعة هنا هي كل طائفة تشايعت وتعاونت على الباطل، والعتيّ هو الفساد وشدة التمرد. ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾ ثم الأعظم مما تقدم أننا لنحن أعلم بمن هم أحقّ بالاصطلاء بحرّ النار ومن هم دون ذلك. والصِّليّ: مقاساة حرّ النار.

لما ذكر أولَى أهل الكفر بدخول النار عطف عليه قوله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ الخطاب هنا للكفار منكري البعث: ما من واحد منكم إلا وهو وارد النار، وهذا التفات من أسلوب الغيبة "هم" إلى الخطاب "منكم"، ويدل على أن الخطاب للكفار خاصة قراءة ابن عباس وعكرمة "وَإِنْ مِنْهُمْ إِلَّا وَارِدُهَا" كما يدلّ له السياق فقد جاءت هذه الجملة مُعترِضة بَين قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِين...﴾ وقوله: ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾، وجاء هذا الخطاب " وإن منكم إلا واردها" لدفع توهّم أن العذاب لا يشمل بقية الكفار بعد نزع الأشد عتيّا وتعذيبهم، فلا أحد يغني في العذاب عن أحد، والورود يأتي بمعنى الدخول كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، أي داخلون، أو بمعنى الوصول أو القرب والمشارفة كما جاء عن موسى في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣]، ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ قضى الله بحتمية وقوع ورودهم إياها وأوجبه على نفسه. ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ وثمّ هنا للمهلة الرتبيّة وليست للمهلة الزمنية كما تقدّم، والمعنى: وزيادة على ما تقدم ينجّي الله المتقين من ورود النار والقربِ منها أصلاً مقارنةً بمن سبق ذِكره من الظالمين الذين يُترَكون وسط النار باركين فيها على ركبهم وهذا مِصداقا لقوله تعالى عن المتقين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا...﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٢]، وهذا يدل على غلط قول من قال بأن المتقين يُنَجّون من النار بعد ورودها؛ لأن النجاة تكون قبل الوقوع في الضرّ لا بعده، وقد استعمل لفظ "نَذَرُ" الذي يحمل معنى الترك والإهمال مبالغةً في تحقير المشركين، ولم يُذكر إدخالُهم في النار وهو معلوم بالكلام عن إبقائهم فيها.

١٢. ذكر بعض شبهات الكافرين والرد عليها، ومقارنتهم بالمؤمنين

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (٧٤) قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا

سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧)﴾.

بعد إقامة الحجة على منكري البعث أورد شبهة لهم وهي أن الأصل أن تظهر أمارات النعيم على الطائفة المحقة من الفريقين فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ وإذا تتلى على الناس آياتنا الواضحة الحجة البيّنة الدلالة قال الكفار للمؤمنين أينا أحسن منزلا ومجلسا؟، والمقام: موضع القيام، والندى: موضع الاجتماع، أو مخصوص بموضع يجتمع فيه لحادث أو مشورة ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾ وما أكثر ما أهلكنا قبل كفار قريش من الأمم مِمّن كانوا أحسن متاعا منهم وأجمل منظرا، فلو كان الترف هو المقرّب إلى الله لما أهلك المترفين و أبقى الصالحين من الفقراء، و أثاثًا: مالاً ومتاعًا، ورِءْيًا: منظرًا. ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ قل يا محمد لهؤلاء الكفار أن إمهال الله لهم وإمداده إياهم بالنعم ما هو إلا استدراج لهم يأتي بعده العذاب الدنيوي أو العذاب الأخروي أو كلاهما، فيعلمون حينئذ أي الفريقين من المؤمنين والكافرين أسوأ حالة وأضعف أنصارا، وقد قابل قولهم: "خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا" بقوله: "شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا" ليُظهِر حقيقة حالهم.

ولما تحدث عن قانون الزيادة عند أهل الضلال ومآلِه عرّج إلى الحديث عن الزيادة عند المهتدين فقال: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ ويزيد الله المهتدين هداية، والأعمال الصالحة الباقي ثوابها خير عند الله جزاء وذخرا وخير مرجعا، وقد عطفت هذه الآية على التي قبلها ليتبين أن الله ممكّن لكلا الفريقين من أن يزدادوا فيما اختاروه لأنفسهم سواء كان ضلالا أو هداية فلينظر المرء ما يختار لنفسه ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ أفرأيت -أيها الرسول أو يا من وصلته هذه الآية- إلى الذي جحد بآيات الله وزعم أن الله ممدّه في الآخرة بالمال والبنين؟ والاستفهام للتعجب من حال هذا المتغطرس، والرؤية في "أَفَرَأَيْتَ" بمعنى أفعلمت. ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ أكشف له الغيب فعلِم ذلك علم اليقين،

أم أخذ عهدا من الله على أن يمدّه بهما في الآخرة؟! ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ كلاَّ ليس الأمر كما يدّعي، فلا اطلاع لديه ولا عهد عنده من الله، وسنكتب ادِّعاءه و افتراءه ونزيده عذابا فوق عذابه بسبب ذلك. ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي ونسلب منه ماله وولده بموته ويأتينا يوم القيامة منفردا لوحده. والمقصود بـ: "مَا يَقُولُ" مضمون قوله وهما المال والولد، أي نرث ما تضمنه قوله. ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ وجعلوا لأنفسهم آلهة من غير الله يعبدونها ويتقربون إليها عساها تُكسبهم عزا. ﴿كَلَّا﴾ نفي لحصول أيّ عزٍّ لهم بعبادة الآلهة، ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ سيكفر المشركون بعبادة الآلهة ويكونون أعداء لها، قيل بدخولهم الإسلام، أو ستنكر الآلهة يوم القيامة عبادة المشركين إياها وسيكون ذلك ذُلاً لهم عوضا عن العزّ الذي كانوا يرجونه بها. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ ألم تر-أيها الرسول- أننا سلَّطنا الشياطين على الكافرين، تغويهم وتغريهم على المعاصي بقوة الوسوسة؟ والأَزُّ إغراء واستفزاز باطني. ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ فلا تستعجل عذاب الكفار وهلاكهم -أيها الرسول- بالدعاء به، فأعمارهم مقدّرة معدودة وأعمالهم محصاة فإذا جاء أجلهم لم يؤخَّر ولو ساعة، والعدّ يستعمل مجازا للمدة القصيرة إذ يكون للشيء القليل، وفي هذا إنذار لهم وإشارة إلى قرب أجلهم.

ثم عرض إلى بيان الفرق بين مصير من ابتغى العز في عبادة الله ومن ابتغاه في عبادة من سواه فقال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ يوم نجمع المؤمنين الموَفِّين بدين الله إلى ثواب الرحمن وفودًا مُعزَّزين مُكرَّمين، والوفد جمع و افِد ويستعمل لمن أقبل على ملِكٍ لجلب مصلحة، وَالْحَشْرُ هو الجمْعُ ويستعمل في الخير والشر. ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ ونسوق الذين أجرموا سَوْق إذلال إلى النار كما تساق البهائم العطشى، والوِرْد جمع وَارِد وهم المشاة العطشى. ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ لا يملك الناس الشفاعة يومئذ إلا من كان له إذن بذلك، أو إلا الرسول ε الذي يملك إذنا بذلك وتكون الشفاعة بهذا المعنى الشفاعة العامة لأهل الموقف لتعجيل القضاء بينهم، ويجوز أن يكون الضمير في "لَا يَمْلِكُونَ" عائدا إلى المجرمين، أي:فلا يُشفع لأحدهم إلا من اتخذ عند الله عهدا بدخوله الإسلام واستقامته، أو لا يملكون الشفاعة إذ يملكها من اتخذ عند الله عهدا وهم الأنبياء والملائكة الذين وعدهم الله بالشفاعة لمن أذن لهم.

١٣. ذكر فرية نسبة الولد لله سبحانه والرد عليها

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦)﴾.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ وزاد في غي المشركين و افترائهم أن قالوا اتخذ الرحمن لنفسه ولدًا! ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ لقد أتيتم بقول شنيع بالغ القبح، وقد التفت من ضمير الغيبة "وقالوا" إلى المخاطب "جئتم" ليكون توبيخهم مباشرا صريحا، والإدُّ: هو الأمر الفظيع. ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ توشك السموات أن تتشقق من فظاعة ذلكم القول وشناعته، وتنشق الأرض وتتصدع، وتسقط الجبال مُنْدَكّة، وهُدّ البِناء هدّا انهدم. ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ كُلّ ما يوشك أن يقع من تشوه في تلك الكائنات العظيمة كان بسبب أن نسبوا للرحمن ولدا تعالى الله عن ذلك، ودَعا قد تكون بمعنى نَسَب كما في قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥]. ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ولا يليق بجلال الله وعظمته اتخاذ الولد؛ لأنه نقص ينزه الغني عنه سبحانه. ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ وما من مخلوق في السموات والأرض إلا وهو آت الله عبدا مملوكا خاضعا له والعبودية والبنوة لا يجتمعان. ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ لقد أحصى الله سبحانه وتعالى مخلوقاته وعباده كلهم، وأحاط بعددهم وعَلِمَه، أو أحصى الله وعلم جميع من نَسب إليه الولد فلا يخفى عليه منهم أحد أو ينجو من جُرم مقولته وهذا إن عطفت جملة "لَقَدْ أَحْصَاهُمْ" على جملة "لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا". ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ وكل الناس آتون خالِقَهم يوم القيامة عُزّلاً فُرادى لا ناصر لهم ولا مُعين. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ إن الله جاعل للذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة محبّة ومودّة في قلوب عباده لإيمانهم وعملهم الصالح؛ فيستأنسون ببعضهم في الدنيا وفي الآخرة، ويمكن أن يكون الوُدّ محبة من الله سبحانه وتعالى.

١٤. بيان العلة من تيسير القرآن، وبيان مصير المعاندين

بعد التطواف بآي السورة على مختلف القصص والعبر والوعد للمتقين والنذر والوعيد لمن سِواهم جمع أفانين الحديث ليختتم السورة بالإشارة إلى سبب تيسير القرآن فقال:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)﴾.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ فإنما سهلنا قراءة القرآن وفهمه بلغتك العربية يا محمد، لتبشر به المتقين بما ينتظرهم جرّاء تقواهم من ثواب في الدارين، وتنذر به المعرضين شديدي الخصومة بما ينتظرهم من شقاء ونكد دنيا وأخرى. ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ وما أكثر ما أهلكنا قبل قومك -يا محمد- من أمم مكذّبة هل ترى منهم من أحد أو تسمع لهم صوتا؟ والركز هو الصوت الخفي، وفي هذه الآية تهديد بإبادة كفار قريش إن لم يرجعوا عن غيهم كما أُبيد من قبلهم، وفيها بشارة للمؤمنين بإهلاك عدوّهم وهو مصداق لقوله تعالى: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ .

تمّ بحمدِ الله تعالى تفسير سورةِ مريم وتليها سُورة طه.

تفسير سورة طه

تحتل سورة طه مرتبة العدد الخامس والأربعين في ترتيب النزول، وهي بعد سورة مريم وقبل سورة الواقعة، ومجموع آياتها مئة وخمس وثلاثون، وجميع آياتها مكية النزول، عُرِفَتْ بسورةِ إسلام عمر بن الخطاب ﷺ لأن آياتها الأولى قرأها عمر وتأثر بها وكانت سبب إسلامه في حادثته المشهورة. إن ثبتت، وفي ثبوتها نظر. ، وقد حَوَتْ على معانٍ عظامٍ في مَطْلَعِهَا، وقد استهلت مواضيعها القيمة بالحديث عن قيمة القرآن الكريم وعظمته، ودوره في اهتداء البشرية، ثم استفاضت في سرد مجريات قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل وفرعون الطاغية والسامري، لِيَعْلَمَ حَامِلُو الرسالة المحمدية أَنَّ شأنَ أمْرِهِم وعاقبَتِهم سيجري مجرى الرسالة الموسوية، بنفس التحديات والعقبات، وأَنَّ الدعوةَ إلى اللهِ قائمة

على المجاهدَة والمخاطرة وملاقاة الصِّعاب والشدائد، كما أنها أيضا مُفْضِيةٌ إلى النماء وإصلاح القلوب والعمران، وَشَدَّت السورةُ انتباه القارئين بذكر أهوالِ يومِ القيامَة الفظيعة، لتُحْدِثَ إيماناً قويا في القلوب، وخشوعا كبيرا لرب الوجود، ثم تلا هذا تذكيرُ البشرية بأبيهم آدم ووقوعه في حبائل الشيطان جراء استجابته له، وتحذيرهُم من استدراج حزب الشيطان الماكر للوقوع في مصائده، كما فُعِلَ بآدم حين زين له مخالفة أمر خالقه وأُخْرِجَ من جنته، وَكَانَ ختامُهَا بتسليةِ النَّبِيّ على أقوال المعاندين والمكابرين وذلك بأمره بالذكر والتسبيح والصلاة، والتسلح بالصبر والتَّحَمُّل، ثُم بِتَثْبِيتِهِ والدفاع عنه بالحجة والبرهان ضِدَّ المشْرِكِين المعارضِينَ لَهُ.

١٥. الغايةُ من نُزُول القرآن، ودلائلُ عظمةِ مُنْزِلِهِ

﴿طَهَ (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٣) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨)﴾.

﴿طَهَ﴾ حرفان هجائيان، رُسِمَا في المصحف بصورتهما المعروفة، لكن يُنْطَقَانِ باسمهما "طا" "ها"، سِيقَتْ هذه الحروف كغيرها في أوائل بعض السور مساق التهجي والتقطيع، تبكيتا للعاجزين عن الإتيان بسورة مثل سُوَرِ القرآن، أي بهذه الحروف التي تنظمون بها شعركم ونثركم لم تقدروا على تأليف كلام يضاهيه في خصائصه وبلاغته، فكأن الله تعالى يلقنهم الحروف الهجائية كتلقين المعلم للصبيان ليغريَهُم بمحاولة المعارضة، فعوملوا معاملةَ المتعلم العاجز الجاهل، وإنَّ ذِكْرَ القرآن الكريم بعد هذه الحروف المقطعة في أغلب السور لدليل يؤكد صحة ما ذهبنا إليه، ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ لَمْ نُنْزِلْ عَلَيْكَ القرآنَ يا محمد في أي حال من الأحوال ليكون سبب تعاستك وضنكك، وَالشَّقَاءُ: فَرْطُ التَّعَب، وأول ما يراد من الشقاء: تَحَسُّرُ النبيّ وتألمُهُ بحال مكذبي آيات الله حين تبليغه لهم، وقد حذره الله من إهلاك نفسه في موضع آخر في كتابه بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ ما أنزلناه عليك إلا لتذكر به المستعدين للتأمل والنَّظَر، فلا تشقى بمن كذبك وأعرض عنك، والدعوة بالقرآن فيها تذكير الفِطَرِ بِتَوْحِيدِ الله تعالى والعبودية له، أو تذكير بما جاءت به ملة إبراهيم عليه السلام، والاستثناء في الآية مفرغ من

أحوال للقرآن محذوفة، وكأنه قال: ما أنزلنا عليك القرآن في أي حال من الأحوال إلا حال إنزالنا له عليك تذكرة لمن يخشى، والتذكرة: خطور المنسي بالقلب، وَ"مَنْ يَخْشَى":هو المفكر في نجاته من العو اقب كلها الدنيوية والأخروية، ﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ "تَنْزِيلًا" حالٌ من القرآن، والجملةُ تنويه بعظمة القرآن وشأنه، وكناية بأن منزل القرآن على محمد ﷺ قادرعلى نصره وتأييده، وَعَدَلَ الله عن ذكر لفظ الجلالة "الله" إلى ذِكْر"مَن" مضافة إلى مخلوقٍ له أكبرَ من خلق المخاطبين، ليشعرهم بمكانة ما أنزله وَعَظَمَتهُ، "العُلَى" صفة للسماوات، كاشفة زيادة معنى عظمة خالقها، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ والمعنى: اللهُ مَالك مَخْلُوقَهُ العَظِيمَ ومتصرِّفٌ فيه، فكيف بمن دونه؟ اختير وصف الرحمن لإقراره، لأن المشركين أنكروا تسميته بالرحمن، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠]، العرش: عالمٌ عظيمٌ من العوالم العليا، فقيل هو أعلى سماء من السماوات وأعظمها، وقيل: المُلْكُ، وقيل غيرُ ذلك، ويُسَمَّى: الكرسي أيضا على الصحيح، الاستواءُ: بمعنَى الاستيلاء والقهروالتصرف الكامل، و أنشدوا:

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى العِرَاقِ ... بِغَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ

وتفسير الاستواء: بالاستقرار والجلوس ممتنع في حق ذاته العلية، لعدم مشابهته صفات الحوادث، وتنزهه عن المكان والزمان والحلول، عملا بما جاء في الآية المحكمة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ بعد بيان سلطته -ﷻ- على عرشه يعلمنا بملكيته ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما من الموجودات وما تحت التراب من الأشياء، لمزيد إشعارٍ بعظمته وتدبيره وتصرفه المطلق، وإعلامٍ بقيمة وَحْيِهِ وشأنه، ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ ومِنَ دلائل عظمة منزل القرآن الكريم استواء السروالجهر في علمه، فلا تفاوت بينهما، والخطاب مُوَجَّهٌ للنبيّ وَيَعُمُّ غَيْرَهُ بالتَّبَع، والمعنى: وإن تجهر بالقول في دعوة أو ذكر أو دعاء أو كلام فإن رَبَّكَ يعلم السروأخفى من السر، وَالسِّرُ: حديثٌ خَفِيٌّ بين اثنين لا يعلمه سواهما، وما أخفى منه هو حديث النفس وما يُكِنُّهُ المرء من السرائر بداخله، ويُستفادُ من الآية أن اللهَ غني عن الجهر لمعرفة مراد عبده، والجهرُ والسِّرُّ وما دونه على درجة واحدة في علمه ﷻ فلا تخفى عنه خافية، ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أفضلُ جملة في الوجود، ومعناها: لا معبود بحق سواه، ومقتضيات

عبادته وحده دون غيره من الأهواء والقيادات والأصنام المادية والمعنوية تلك التي ذُكِرَتْ قبلا: خَلْقُ السماوات والأرض، استواؤُه على العرشِ، سَعَةُ ملكه ما بين السماوات والأرض وما تحت الثرى، عِلْمُهُ الجهر والسر وما أخفى منه، ومن كان على هذا الشأن فهو الأحق بالعبودية والاستسلام، ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ له أسماء رفيعة القدر، دالة على عظمته المطلقة وكماله الواسع، وَالأسماء هي الألفاظ المجعولة أعلاما على الذات بالتخصيص أو بالغلبة؛ فاسم الجلالة "الله" عَلَمٌ على ذات الإله الحق بالتخصيص، و"الرحمن" وغيره اسم لله بالغلبة، لأن أصلها صفات ثم غُلب معنى الاسمية فيها، والحسنى مؤنث الأحسن، وهو المتصف بالحُسْنِ الكامل في ذاته، وقد وصفت أسماؤه ﷻ بالحسنى لأنها دالة على الكمال الحقيقي، فلا يشاركه فيها غيره، ولا يسلبها منه أحد، والمراد بالأسماء الصفات، عبر عنها بالأسماء لأنه متصف بها على ألسنة خلقه، فصارت كالأعلام على ذاته تعالى، وَ"لَهُ" للاختصاص، لا لغيره، لأن غيره إما أن يكون اسمه مجردا من المعاني كالأصنام، أو غيرَ كاملٍ كاتصاف البشر بالرحمة والملك، أو كذبا كاتصافهم بالكبر وهم ليسوا أهلا للكبر والجبروت.

مجريات قصة موسى عليه السلام

١٦. ابتداء نزول الوحي علي سيدنا موسى عليه السلام

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦)﴾.

بعد أَنْ أعلى الله تعالى شأن وحيه بتعظيم صفاته وكمالاته العليا، وأخبر نبيه بأن إنزال القرآن عليه لم يكن بهدف إشقائه، أردفه بالحديث عن قصة سيدنا موسى عليه السلام والشدائد التي لقيها سيدنا موسى عليه السلام في سبيل دعوته، تثبيتا لقلب النبي محمد ﷺ، وتأسيا به في تحمل أعباء الرسالة، والآيات كلها إلى ختام القصة تسلية له بأن جزاء المعرضين عن هديه سيكون كعاقبة فرعون وأعوانه.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ هل وصلك يا محمد خبر موسى وقصته العجيبة؟، استفهام يراد به التشويق لمعرفة الخبر، وفُضِّلَ توظيف "هَلْ" على غيره، لما فيه من معنى التحقيق، وَ"هَلْ" كَـ"قَدْ" الإخبارية في التحقيق، ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ حديثُ موسى حين رأى نارا متأججةً بَعيدةً، وهو بِلَيْلٍ تائهٌ في فلاة، فقال لأهله -زوجه وأولاده-: الزموا مكانكم، إني أبصرت نَارًا، وَ"إِذْ" ظرفٌ للحديث، مستعمل لزيادة التشويق بحقيقة الخبر، "آنَسْتُ" من مصدر الإيناس وهو الإبصار البين الذي لا شبهة فيه، ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾ أنا ذاهب لعلي أجيئكم بقبس من النار المشتعلة هناك، لنستضيء بها في الطريق، وَ"لَعَلِّيَ" يفيدُ عدم الجزم بالوفاء بالوعد، القبس: الشعلة من النار الصالحة لإضرام نار أخرى؛ كالجمرة أو الفتيلة أو العود، ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أو ألقى على النار عالِمًا بالطريق فيهدينا سواء السبيل، وهذه إشارة على أن موسى كان تائها في ظلمة الليل لا يعرف الطريق، والذي وقع لموسى رمزٌ حامل في طياته معانِيَ جليلة ورسائل ربانية، منها: وجودُ الهدَى على النار إشارة على حصول هدى رباني في ذلك الموضع يبلغه لقومه ليخرجهم به من ظلمات الجهل والضلال إلى أنوار العلم والتدين الصحيح، وترميزُ الهُدَى بالنار لاشتراكهما في معنى النور، فالنار نورٌ والوحي نور، فالأول مادي، والثاني معنوي، ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَى﴾ فَلَمَّا وصل موسى إلى موقع النار سمع نداءً مؤكدا يَقُولُ: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أنا ربُّكَ فتجرد من نعليك، والنعلان: جلدان غليظان يجعلان تحت الرجل ويشدان برباط من جلد لوقاية الرِّجْلِ مِنْ أَلَمِ المشي على التراب والحصى، وأُمِرَ بخلعهما تعظيما لمقام نزول الوحي، والمقصد من إعلان اسم صاحب الكلام "إِنِّي أَنَا رَبُّكَ" عدم تَوَهُّم موسى أن كليمه هو شيء غير الوحي، ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ وأعلمه الله تعالى بالمكان الذي حَلَّ فِيهِ إرشادا لِتَيْهِهِ؛ وهو الوادُ المقَدَّسُ، أي: الـمُطَهَّرُ الـمُنَزَّهُ، وتقديس الوادي بسبب حلول النداء الإلهي فيه، واختلف المفسرون في إيضاح كلمة "طُوًى"؛ فمنهم من عَدَّهَا اسما لذلك المكان، وقيل: اسم مصدر بمعنى اسم مفعول فيكون المراد: إنك بالوادي المقدس الذي طويته سيرا، وقيل: اسم للأودية الضيقة أو الغائرة، كالبئر الغائر المسمى طَوِيًّا، وهو الأظهر، ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ وأُخْبِرَ موسى بأن الذي اصطفاه للرسالة وتلقي الوحي هو الله تعالى، مخافة تطرق الشك إلى نفسه، وأُمِرَ وقتئذ بالاستماع لما يوحى إليه، والكلامُ الموحى إليه يبتدئ بقوله ﷻ: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾ عُرِّفَ

مُوسَى باسم الذات العلية "اللهُ" قبل إيعاز التكاليف والتوجيهات إليه، لأنه أول ما يجب علمه، وضمير الفصل "أَنَا" لزيادة تقوية الخبر، ثم لُقِّنَتْ لهُ جملة التوحيد والإخلاص، فقال له ربه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ لا إله من دوني يستحق الخضوع والاستسلام المحض إلا أنا، فسلّم أمرك لي، ووجه وجهك إليَّ، واكفر بجميع الأنداد والشركاء، لأنهم ضعفاء لا يملكون أمرَ الضُّرِّ والنَّفْعِ ولا سِرَّ السمَاواتِ والأرضِ. ثم أمره الله بتكليف تَعَبُّدِيٍّ فقال: ﴿وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ إقامة الصلاة: هي كل الأعمال التي تفضي إلى حفظها وتعزيزها وتبويئها المكانة العالية، والمعنى: توجه إلى الله بصلاة تامة غير منقوصة لأجل تعظيمي واستشعار فضلي، والذكر يكون بالتفكر والتأمل بالعقل، أو بالنطق اللسان، والأول هو محرك الثاني، ومن لطائف الآية أن الصلاة شُرِعَتْ لمقصد إقامة فريضة ذكر الله تعالى، وهذا المقصد الحسن يجعلها -أي الصلاة- حيوية مفعمة بالإيمان والخشوع، وبدونه تصبح جوفاء مجردة من المشاعر الإيمانية القلبية، وأُعْلِمَ النبيُّ موسى بحقيقة اليوم الآخر والجزاء لأنه أصل عقدي متين من جملة أركان الإيمان فقيل له: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ اختلف المفسرون في توجيه معنى "أَكَادُ" لاشتهار استعماله في التعبير عن مقاربة وقوع الفعل المخبر به والحقيقةُ أن وقتَ الساعة مخفيٌّ بنص القرآن؛ فأما القولُ الأول: أكادُ أُخْفِيهَا؛ أي: أخفي الحديث عنها، وهذا لشدة إتيانها بغتة على البشرية، والقول الثاني: الهمزة في "أُخْفِيهَا" للإزالة، أي: أزيل إخفاءها، فيكون المعنى: أكاد أظهرها، والقول الثالث: "أَكَادُ" صِلَة بمنزلة إتيان "كان" في بعض المواضع صلة، وعلى هذا فالإتيان بـ "أكاد" تأكيدا للإخفاء، والمعنى: أخفيها فلا تأتي إلا بغتة، والساعة: جزء من الزمن، ويراد بها لحظة وقوع القيامة؛ تبتدئ عندها أحداث اليوم الآخر، ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ والحكمةُ مِن بعثِ العبادِ إلى اليومِ الآخرِ محاسبةُ كل نفس عما عملت، فتجزى الشقية بعقاب في النار، والسعيدة بنعيم في الجنة، ولا منزلة بينهما، ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ نَهَى اللهُ نبيَّهُ موسى عن الاستجابة لمن كفر بموعد القيامة، فيصده عن الإيمان بها، والمراد من ذلك أن يَتَيَقَّظَ موسى لأي شيء يحول بينه وبين الإيمان بحقيقة اليوم الآخر، وأن يعتصم بالله الذي له أَمْرُ الدنيا والآخرة، ﴿وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ زيادةٌ بيان تومئ بأن الصادين عن الإيمان بالساعة لم يكن صدهم الناس مبنيا على دليل عقلي رشيد، أو كتاب سماويٍّ مبين، بل مجرد اتباع لإملاءات الهوى، التي لا تصمد أمام سلطان الوحي والعقل،

﴿فَتَرْدَى﴾ إن كنت يا موسى ممن صُدَّ عن الإيمان بالساعة فستكون من الهالكين، وَالتَّرَدِّي هو السقوط من الأعلى إلى الهاوية، ويُراد به الهلاك الدنيوي والأخروي.

١٧. إشعار موسى بمعجزة العصا واليد البيضاء

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣)﴾.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ سؤال تقرير موجه إلى النبيّ موسى، والمطلوب هو الإفصاح عن ماهية الشيء الذي بيمينه، والغرض من السؤال أن يوقن موسى بأن ما في يده هو العصا، دفعا للشك بعد تحولها إلى حية، لأنه لو لم يتأكد لأمكن طروء ظن في قلبه أنها تحولت من شيء غير العصا، ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ بجو ابه عليه السلام "هِيَ عَصَايَ" تَحَدَّدَ ما طلب منه، لكنه استفاض في الجواب لكون السائل قد طلب منه سبب مَسْكِ العصا بيده، أو أنه -عليه السلام- تذوق حلاوة مناجاة الله إياه فاسترسل في الحديث، فقال: ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ أستند إليها، والتوكؤ: الاعتماد على شيء من المتاع، ولا يقال توكأ على الحائط، ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ وأضرب بها أغصان الأشجار ليتساقط أوراقها رزقا لأغنامي، والهَشُّ: الخبط، وهو ضرب الشجرة بعصا ليتساقط ورقها، فتأكلها الأغنام، ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ ولي فيها حاجات أخرى، ومآرب: جمع مأرب ومأربة؛ وهي الحاجة، اكتفى سيدنا موسى عليه السلام بكلامه العام ولم يستطرد في بيان منافع العصا؛ كتخويف الحيوانات المترصدة لغنمه، وحمل المتاع، وغيرها، ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى﴾ أمره الله بإلقاء العصا على الأرض، والضمير في "قَالَ" عائد إلى الله تعالى، انتقل من ضمير التكلم "إِنَّنِي أَنَا اللهُ" إلى الغائب، ويدعى هذا الانتقال أسلوب الالتفات، ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ ألقى موسى عصاه على الأرض، فإذا التي كانت بيمينه خشبا صلبا دبت فيها الحياة وانقلبت إلى حية تسير بسرعة على الأرض، ووصفها بالسعي إشارة إلى أنها كاملة الخلقة، والحيات هي فراخ الثعابين، ولما تعظم أجسادها وتطول تُسَمَّى ثعابين، ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا

تَخَفْ﴾ فزع موسى مما وقع بين يديه، وخاف من خطر الحية على نفسه، فأمره الله بأخذها في يده، وألّا يخاف منها، وهذا إعداد منه تعالى ليوم الزينة الآتي، وَخَوْفُهُ أمر طبيعي مفطور عليه لا يُنْقِصُ من رجولته ولا من نبوته، ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ وطمأنه الله بردها إلى هيئتها الأولى؛ العصا الخشبية، والغايةُ من مُشَاهَدَةِ موسى انقلاب عصاه حية قبل حلول ميعاد المناظرة؛ الإيقانُ بأنها تطبعت على الانقلاب، والتحلي بالصمود والتماسك لَمَّا تظهر معجزته الخارقة لسحرة فرعون في موعد الزينة، ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ أدخل يدك اليمنى تحتَ عَضُدَكَ الأيسر من داخل قميصك فتلتصق بجلدك، والآية لم تشر إلى الإدخال، لكنه مستفاد من دلالة الجيب في آية أخرى في قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [النمل:١٢]، وَالضم هو الإلصاق، وَالجناح: العضد وما تحت الإبط، ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ ونتيجة ضم اليد إلى الجناح خروجها بقدرة الله تعالى وقوته بيضاء متلألئة كضوء القمر النَّيِّرِ، "مِنْ غَيْرِسُوءٍ" لم يكن بها أذى أو مرض أوعاهة، أي: لم يكن ليسبب ذلك التحول من بشرة عادية إلى بشرة متوهجة مشاكل مرضيةً في يد موسى عليه السلام، ﴿آيَةً أُخْرَى﴾ معجزة اليد البيضاء آية ثانية قَوَّيْنَاكَ بها يا موسى؛ لتُثْبِتَ لأعدائنا صدقَ إرسالنا لك وَقُوَّةَ الحق الذي معك، ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ سلحناك بمعجزتين خارقتين لعادة الإنسان لنعرفك ببعض آياتنا القوية المظهرةِ قدرتَنَا العجيبة اللامتناهية، وهذا ليتيقن موسى بعظمة ربه ويستأنس به في طريق دعوته، وَاللام في "لِنُرِيَكَ" للتعليل، راجعة إلى تنويع الآيات، وَ"مِنْ" تبعيضية، أي: نريك بعض آياتنا.

١٨. إدراكه مسؤولية الدعوة واستعانته بالله تعالى

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْلِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)﴾.

بعدما بين لنا القرآن الكريم معجزة عَصَا موسى ويده الشريفة، حكى لنا قصة ذهابه إلى فرعون الطاغية، ومناجاته لله.

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ بعد إمداد موسى بالآيتين العظيمتين أمره الله بالتوجه إلى فرعون، ليدعوه إلى عبادة رب العالمين وحده لا شريك له، ويرغبه في التوبة والرجوع إلى طريق الله المستقيم، وذلك لأن فرعون تجاوز حدود الله وخالفَ أوامره ونواهيه، واستعبد بني إسرائيل واستضعفهم، ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ لما عَظُمَ على مُوسَى تكليف ربه، وكَبُرَ عليه ذهابه إلى أعتى ملوك الأرض، واستشعر ضعفه ونقصه، التجأ إلى ربه متضرعا طالبا منه المعونة والسداد في المهمة الشاقة، وأول دعاء لهج به لسانه: طلبُهُ توسعة الصدر للتصدي للأمر المكلف به، و إبعاد المكدرات والمنغصات التي تحول بينه وبين دعوة فرعون، ﴿وَيَسِّرْلِي أَمْرِي﴾ والدعاء الثاني: تسهيل أمر الذهاب إلى فرعون وإزالة الحواجز والصعوبات المعترضة في الطريق، ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ والدعاء الثالث: سلامة آلة التبليغ، شبه عدم فصاحته وبيانه بعقدة كعقدة الحبل في لسانه، فطلب منه ﷻ فكها ليتم تبليغ مراده على أحسن وجه، ويستساغ كلامه في نفوس السامعين، لأن عُسْرَ الكلام عَقَبَةٌ أثناء التبليغ كالعقدة في الحبل تعرقل سيره في العجلة، ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ والهدف من حل عقدة اللسان فهم الحقائق والمعاني المبلغة لهم، ومن الآية نستشف وجوب تحلي الدعاة إلى الله بشرط البيان والفصاحة والقدرة على إيصال الفكرة إلى المدعوين في كل الميادين والمجالات، ضمانا لوصول المضامين الدعوية إلى قلوب المدعوين، ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ وسأل الله تعالى أن يجعل له من أهله مُعِينًا ومساعدًا في حمل مسؤولية الدعوة والبيان، ﴿هَارُونَ أَخِي﴾ خَصَّ موسى عليه السلام أخاه هارون بالإعانة والمساندة لعلمه بقدراته المؤهلة، كفصاحته في القول، وكونه الأقرب إليه والأعرف به، وغير ذلك من ميزات الرابطة الأخوية، ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ اجعله سَنَدِي لأتقوى به، وَالشد: الإمساك بقوة، وَالأزر: الظهر، والآية تمثيل لهيئة المُعِين والمُعَان بهيئة شاد الإزار إلى الظهر بحبل أو نحوه، لأن علة تسمية الإزار إزارا لكونه يشد إلى الأزر وهو الظهر، ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ اجعله شريكا لي يتقاسم معي أمر رسالتي، وهي بيان لجملة "وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي"، ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا، وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ غاية دعوات موسى المتنوعة لربه، تحقيقُ تسبيحٍ نَوْعِيٍ غزيرٍ لله ﷻ، وذكرٍ كثيرٍ له، ويتمثل تسبيحهما حين دعوتهما لفرعون في إفراده تعالى وحده بالألوهية والعبودية له، وتجريده من صفات النقص والعجز والحوادث كالإنجاب والشريك والنسيان والاحتياج وغيرها، ونسبة الكمالات المطلقة إليه، كما أن

ذكرهما لله ﷻ مبثوث في ذكر نعمائه و أفضاله ورحماته على الورى، وبيان أوامره ونواهيه، وأيّ كلام يتلفظون بِهِ يحمل في طياته دلالات على الله ﷻ، وقُيِّدَ التسبيحُ والذِّكْرُ بالكثرة، تعظيما وإجلالا لله تعالى، وإضعافا لكيد الشياطين وبأسهم، ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ دَعَوْتُكَ يا ربي لأنَّك مُطَّلِعٌ على خفايا خلقِك، وعالمٌ باحتياجِي وعَجْزِي قبل أن أسألك، والجملةُ تعليلٌ لدعوات موسى لربه.

١٩. استجابة دعوات موسى عليه السلام، وتذكيره بفضل الله عليه قبل بداية رسالته

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١)﴾.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى﴾ أعلم الله نَبِيَّهُ موسى باستجابة دعو اته وتلبية مطالبه، والسُّؤْلُ بمعنى المسؤول، كالأُكْلِ بمعنى المأكول، "يَا مُوسَى" للتشريف والتعظيم، ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ تذكير موسى بالنعمة الجليلة التي مَنَّ الله بها عليه قبل تحقيق سؤالاته، والمرادُ: كَيْفَ لاَ أُلَبِّي حاجتك وقد كفلتك وقمت برعايتك و أنت لا تزال رضيعا، وبيان الامتنان في المرة الأخرى هو في قوله: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾ مننا عليك حين ألهمنا أمك ما ستفعله، وهو القذف في اليم، والإلهام إما بالرؤية في المنام، أو وحي على لسان نبي ذلك الزمان، أو ملك مرسول، ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ ضَعِي الرضيعَ في الصندوق، وألقيه في البحر، وَ"القَذْفُ" أصله الرمي، وأطلق هنا على الوضع تمثيلا بهيئة السَّاتِرِ عَمَلَهُ عَنْ أنظار الناس، وَالتَّابُوتُ: الصندوق، وَاليَمُّ: مُطْلَقُ البحر، وهو مفرد ولا يُجْمَع، ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ فيدفعه البحر بأمواجه تحت رعايتنا ولطفنا به إلى شاطئ بحر آل فرعون، ولام الأمر في "فَلْيُلْقِهِ" دالة على التكوين والإنشاء، والألف واللام في "السَّاحِلِ" للعهد، ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ فيأخذُه إنسانٌ يَنْصِبُ عداءً لربه ولموسى، وهو فرعون الطاغية، عَدُوٌّ لله لأنه انتحل صفة الألوهية والربوبية من رب الأرباب، وعدو لموسى على ما سيؤول إليه الأمر،

أو لكونه طفلا من بني إسرائيل، لأنه عَزَمَ على قتل غلمان بني إسرائيل جميعا، وجاءت "يَأْخُذْهُ" مجزومة لأنها جواب لفعل الأمر، وهو على شاكلة ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٨]، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ وزرع الله في قلوب كافليه في قصر فرعون محبةَ موسى وهو صغير، ليجد مرتعا شريفا ورعاية كريمة، ولا أدل على تلك المحبة مِنْ قول امرأة فرعون: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩]، "مِنِّي" زيادة للتعظيم والتقدير، ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ ألقينا محبتك في أفئدة خادميك، لِتُنَشَّأَ في أحسن حال، وهذه الرعاية ليست بمنأى عن رقابتنا وحفظنا لك، والمعنى: أن الله يقول له: لم نتخلَّ عنك بتوفر من يَقُومُ بك، فعيننا تكلؤك في جميع أطوار حياتك، والعين مجاز في المراقبة والجفظ والصون، لا العين الجارحة، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ﴾ حين خَرَجَتْ أختُكَ تَتَفَقَّدُ أثرَك، ولما وَصَلَتْ قصرَ فرعون وجدت أهلَه يسألون عن إمكانِ وجود مُرْضِعَةٍ يَتَقَبَّلُهَا فَمُ موسى، فقالت لهم: هل أنبئكم على مرضع تقوم بشأنه؟ ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ فعدنا بك إلى أمك بواسطة أختك التي قصت أثرك، لكي تُسَرَّ بلقائك وتطمئنَّ لسلامتك من البحر ولقاء فرعون، ولا يدوم معها حُزْنُ الفراق. بعد ذلك انتقل الحديث إلى حادثة قتل النفس ومجرياتها، وما منّ الله عليه بعد توبته واستغفاره، فقال: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ وقتلت نفسا خطأً بالوَكْزِ، حينما استغاثك الذي من شيعتك عليه، فأصابك الغَمُّ والتأسُّفُ نتيجةَ فِعْلَتِكَ، وبعد توبتِك وتضرعِكَ لربك أزلنا عنك غَمَّكَ، وكشفنا عنك حسرتَكَ، ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ وبعد التنجية من الغم، حصل لك اضطراب في نفسك، لخوفك من عقاب فرعون وألم الغربة، وتلك فتنةٌ اختَبَرَتْ موسى فَلَزَّتْهُ إلى الخروج من البلد، ليحصل بعدئذ على المكرمات والهبات، كالزواج والعمل مع صهره وغيرها، فصارت الفتنة إلى منن، ولذا عُدَّتْ الفتنةُ ضمن مجموعِ المنن السابقة، والفتنة: الاختبار والتمحيص، ونتائجها محمودةٌ على الإنسان في الغالب، وتنكير "فُتُونًا" للتعظيم، أي فتونًا قَوِيًّا، ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى﴾ تفريع بعد ذكر الفتون، أي عاقبة الفتون أن مكثت سنين في أهل مدين، في كنف الرجل الصالح ، ثم جئت في الوقت المقدر إلى الوادي المقدس لتَلَقّي الوحي، وَ"يَا مُوسَى" نداء للتشريف والتبجيل، ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ وأحسنت إليك لتكون رسولا مبلغا عن الله

ﷻ، والآية تذكير بقوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾، وَ"اصْطَنَعْتُكَ": أي جعلتك موضع صنيعي؛ أي إنعامي وإحساني، لغاية الارتقاء إلى مسلك الأنبياء والرسل، "لِنَفْسِي": خالصا لي، ويرجع المعنى إلى أنه اختير لرسالته ﷻ.

٢٠. إرشادات توجيهية في دعوة فرعون

﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨)﴾.

﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ أمر الله تعالى نبيه موسى باصطحاب أخيه هارون في طريق الدعوة، دون أن ينسى معه الآيات المبهرات الدالة على صدقه، وهي آية العصا واليد، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢]، ولا يصح هنا أن يقال: إن المراد بـ"بآياتي" آيات الله التسع، لأنها لم تتحقق كلها عند ذهابهما إلى فرعون، وسائغ عند النحويين إطلاق الجمع على الاثنين، ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ وأمرهما بمداومة الذكر الكثير لله ﷻ في جميع تصاريف حياتهما، ولا يفترا عنه، لأنه بمنزلة الزاد العظيم الذي يتقوى به الإنسان لمجابهة الصعاب والشدائد، والذكر هو حضور صفات الله العليا وكمالاته الجليلة في القلب، سواء بالتأمل العقلي أو التلفظ باللسان، و"تَنِيَا" من "وَنَى" بمعنى فَتُرَوَضَعُفَ، ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ الخطاب في الآية موجه إلى موسى وهارون الذي بحضرته، ويدل على هذا تعقيبهما على أمر الذهاب إلى فرعون؛ ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾، وعلة ذهابهما إليه كونه طغى وتجبر، فَعُلِمَ الهدَفُ النَّبِيلُ: هو كَفُّهُ عن الطغيان والفساد، والطغيان: تجاوز الحدود، ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ وألزمهما بالقول اللين في دعوة فرعون، بمعنى أن يكون قولهما ممزوجا بالرفق والشفقة لا الغلظة والانتهار والتعنيف، لأنه قد تَضطرُّ الإنسانَ طبيعةُ مواجهة الأكابر إلى تصرفات سلبية قد تحول بينه وبين الهدف النبيل المبتغى حصوله، ومن ليونة قولهما؛ قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ۞ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ

فَتَخْشَى﴾ [النازعات: ١٨-١٩]، ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ مجانبةُ القول الغليظ وملازمةُ القول اللين رجاءَ حُصُول الهدَايَةِ الإيمانية في قلب فرعون، وَأُمِرَا بالتلطف مع علمه تعالى في أزله أنه لا يتذكرولا يخشى، إلزاما للحجة، وقطعا لأعذاره يوم القيامة، والتذكر: الوصول إلى معرفة دلائل الحق واعتناقها فيطيع الله على تَبَصُّر، الخشية: الخوف من حلول العقاب فيطيع الله عن وَجَل، وبذلك يَكُفّ عن الفساد في الأرض، وإذا أمر موسى وهارون بالتلطف مع فرعون مع شدة طغيانه وظلمانه، فغيرهما من الدعاة أولى بأن يراعوا اللين والتلطف في الحديث مع المدعوين، ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ لما عَزَمَا عَلَى الذهاب إلى فرعون وعَرَفَا ثِقْلَ الأمر وخَطْبَهُ، لَهَجَ قَلْبَاهُمَا بدعوةٍ حارة، تنم عن وعيهما بحجم المسؤولية ومآلاتها قبل وقوعها، مفادها: يا ربنا إننا نخاف أن يُعَجِّلَ فرعونُ بعقابِنا أو إهلاكنا، أوتكون دعوتنا سببا لزيادة التكابرعن الحق والإفساد في الأرض، "يَفْرُطَ" بمعنى: يُعَجِّلُ ويَسْبِقُ بالشيء، ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ عَلَّقَ اللهُ على حرجِهما المُعْلَنِ بما معناه: لا تخافا فَرَطَهُ أو طغيانَه، لأنني معكما أعلم ما يجري بينكما من قول وفعل، فسأكون لكم ناصرا وحافظا، ولفظتا السمع والرؤية تؤولان هنا بمعنى العلم، أو بانكشاف المرئيات والمسموعات لله سبحانه، لا السمع بآلة، أو الإبصاربالباصرة، لأنه ليس كمثله شيء، ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾فَادخُلا عليه، وقُولَا له: إنا مرسلان من ربك، وليس هذا تعنيفا كما يبدو، لأنه لا يمكن الانتقاص من شيء هو حقيقة بينة أو إخفاؤها لمجرد اعتبارات واهية، وقد أرسلا إليه قصدا لذلك الأمر المقرر، لأن اللين هو في الكلام المقبول في الفِطَرِ الإنسانية، والإتيان: الوصول والحلول، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُم﴾ فأطلق سراح بني إسرائيل، وأرسلهم معنا إلى الشام، ولا تعذبهم بالاستضعاف والتقتيل، لأن من أغراض رسالة موسى عليه السلام إنشاء أمة مستقلة قائمة على العدل والدين، ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ وَالآية تعليل لوجوب الإرسال، والمعنى: قد آتيناك بما يثبت دعوانا وصحة إرسالنا من ربك، وقوله: "مِنْ رَبِّكَ" نفي للربوبية عنه، وقد جيء بالآية مفردة"بآية"، وأريد بها ما يدل على قدرة الله تعالى ولوتعددت مظاهرها، ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ والأمن من العذاب في الدنيا والأخرى على من اتبع هدى ربه، إيمانا وعملا صالحا، والآية إنذاروتهديد لفرعون إن بقي في الإعراض والمكابرة، وبمفهوم المخالفة: العذاب والشقاء في الدنيا والآخرة لمن لم يسلم وجهه لله و اتبع شريعته،

وتقرير هذا المفهوم في قوله: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ إنا قد تلقينا من ربنا أن الهلاك الدنيوي والأخروي حليفٌ بمن كذب بآيات ربه وأعرض عن قبولها، فلا مخلص لك يا فرعون من بطش الله و انتقامه إلا بالانقياد لله رب العالمين.

٢١. الإجابة على أسئلة فرعون

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥)﴾.

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى﴾ لما خوطب فرعون بلفظة "رَبِّكَ" مرتين؛ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، ﴿بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾، وشَعُرَ بانتزاع صفة الربوبية منه اُسْتُثِيرَتْ حَافِظَتُهُ فقال: فمن ربكما يا موسى؟ والآية جواب شرط، وتقدير الشرط: إن كنتما رسولين من ربكما فمن ربكما؟، وتوجيه السؤال لموسى دون هارون، لكون فرعون سبقت له معرفة به في قصره لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء:١٨]، أولعل موسى تولى الكلام في البداية فكان الأولى بالمخاطبة، ولم يقل فرعون: "رَبِّي" لئلا يوهم قومه بأنه تخلى عن ربوبيته، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ قال موسى معرفا بربه: ربنا الذي منح كل شيء من الوجود خِلْقَةً وهَيْئَةً خاصة به، ثم أرشد تلك الموجودات إلى نظام مُعَيّنٍ تَسِيرُوَفْقَهَا، وكل عقل سليم التفكير يعلم أن الإنسان لم يُوجِدْ شيئا في هذا الكون صغيرا كان أو كبيرا، وَالضمير المتصل "نَا" في "رَبُّنَا" لموسى وهارون، وقيل: للعالمين، لينتظم فرعون ضمن العالمين، والمعنى اللطيف في الآية: إذا كانت كلُّ الأشياء خَلْقًا لله، ولها النظام الخاص بها، فأنت يا فرعون ملك لله، فانتهج سبيل ربك لتكون من المهتدين، ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ إن كنت رسولاً فأخبرنى ما حال القرون الماضية وما الحوادث التي حدثت لهم بالتفصيل ، أراد بهذا صرف موسى عما يدعوه إليه ليترك دعوته ، أو يضعف فيها أو يجد زلة فى كلامه ، أو يختبره لعله من القصاص الدارسين لأخبار الأوائل، ويحتمل أن فرعون أراد أن يحاج موسى بما حصل

للقرون الماضية الذين كانوا على ملة فرعون من أهل مصر أي ما حالهم أفتزعم أنهم اتفقوا على ضلالة؟!! قال ابن عاشور: والبال: كلمة دقيقة المعنى تطلق على الحال المهم ...وتطلق على الرأي يقال : خطر كذا ببالي ، ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾ قال موسى نافيا نسبةَ علم الأولين إليه: علم تاريخ القرون الأولى وحوادثها وتفاصيلها الدقيقة عند ربي، وذلك العلم محفوظ مسطور في كتاب، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥]، وأشار إلى الحفظ الدقيق بقوله: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ لا يُخْطِئُ ربي في التقدير والتدبير ولا يفوته شيء من علمه، وهنا انتهى كلام موسى مع فرعون لأنه لا يناسب قوله: "فَأَخْرَجْنَا..." إذا قَدَّرْنَا أَنَّ الكلامَ لموسى، والآيات التاليات إلى قوله: "...تَارَةً أُخْرَى" تقرير لمضامين دعوة موسى وفاصل قصير تعريفي بقدرة الله تعالى وسَعَةِ علمه بقصد تكملة الجزء الباقي من القصة، ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ ربكم هو الذي جعل لكم الأرض مستقرةً مُنْبَسِطَةً، صالحةً للمعاش والسيرِ والجلوسِ والاضطجاع، والمهد: ما يوضع عليه الصبي ويُحْمَلُ فيه كالفراش، ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ وجعل لكم في الأرض طرائق لتسلكوها، سواء التي هي من أصل الخلق كالوديان والسهول والفجاج، أو التي عَبَّدَهَا الإنسانُ بالسير المتَكَرِّرِ عليها، ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وتولى الله إنزال الماء من السماء، ومن المعلوم في الأولين والآخرين أن لا قدرة بشرية أو مادية على وجه الأرض اقتدرت على أن تُشَارِكَ اللهَ في صفةِ الإنزال، قال تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٩]، ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ فأخرجنا بالماء المجعول سببا لإنبات الزرع أنواعًا كثيرة من النبات المتباعد في الصفات والألوان والطُّعُومِ، وفي الآية انتقال من الغيبة "و أنزل" إلى التكلم "فأخرجنا"، ويدعى أسلوب الالتفات، ووجه اختياره هُنَا على طريقة المتكلم المطاع؛ فيكون المعنى: إذا كنا خلقنا الأرض والسماء فحقيق أن تطيعنا القوى والعناصر المبثوثة في الكون، كالماء الذي جُعِلَ عِلَّةً لإِنْبَاتِ الأَرْضِ، وَ"شَتَّى" جمع شَتِيتٍ، بمعنى: المُشَتَّت: أي المختلف والمتنوع، ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ كلوا مما أخرجت لكم الأرض من ثمارها وبقولها وخيراتها العميمة، وقوموا برعاية أنعامكم فيها، والآية تذكير بفضل الله ورعايته لخلقه، "رَعَى" يستعمل لازما ومتعديا، وفي الآية سيق متعديا، ومصدره الرعاية، وأما اللازم فمصدره: الرعي، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ إن فيما ذُكِرَ من المخلوقات العظام الدالة على الصانع وصفاته الكاملة،

علامات ودلائل تدل على وحدانية الله تعالى، وتفرده بالملك والخلق، ولا مُدْرِكَ لأسرار الآيات إلا ذَوُو العقولِ السليمة، وَ"النُّهَى" جمع نُهْيَة، والنهية: العقل، وسمي بذلك لأنه ينهى عن المفاسدِ والمهالِكِ، ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ الآية تذكير بأصل تنشئة الإنسان ليكون دليلا على إمكان الخلق الثاني، من تراب الأرض خلقناكم، وخَلْقُكُم منها بخَلْقِ أبيكم آدم منها، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ [السجدة: ٧، ٨]، وفيها سنعيدكم مرة ثانية بعد مماتكم وتصيرون ترابا، وفي الآية دليل على مواراة الميت بعد موته وبهذا جاءت الشرائع كلها، ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ ومن تربة الأرض بعد أن مُزِّقْتُمْ كُلَّ ممزَّقٍ نعيد خلقكم مرة ثانية كالخلق الأوَّل، وفي الآية دليل على إمكان البعث، وصُورَتُهُ: كما خلقنا أباكم من تراب، فباستطاعتنا إخراجكم مرة ثانية من التراب، وبوجه آخر: كما تعلقت قدرتنا بإخراج النبات من الأرض حَيًّا، فإنه كذلك بقدرتنا نخرجكم أحياء بعد أن كنتم أمواتا، والآية المناسبة لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۞ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧-١٨].

٢٢. اتهام فرعون لموسى بالسحر وتهديده بالغلبة، والاتفاق على موعد المناظرة

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩)﴾.

عودة إلى مطارحة مجريات قصة موسى مع فرعون، ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ ولقد أظهرنا لفرعون آياتِنا الدالة علينا بما يكفي لإزالة الشبه والأوهام والأباطيل، لكنه كَذَّبَ مُوسى والحَقَّ الذِي مَعَهُ، وامتنع عن الإيمان برب العالمين، وَ"آيَاتِنَا" جمع أطلق على الآيتين "العصا واليد" وهو جائز، أو بمعنى: الآيات المتضمنة في الآيتين، كما سمي مقام إبراهيم آيات، ولفظة "كُلَّهَا" تأكيد لزيادة التعجيب من كفره وجحوده، ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَى﴾ قال فرعون مستنكرا إقدام موسى عَلَيْهِ: أَأَتَيْتَ إلينا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى؟ وغايةُ الاستفهام من فرعون إفساد صورة موسى في عقول بني إسرائيل على أنه باغ متعد على الأمة الإسرائيلية، لِيُعَادُوهُ ويُبْغِضُوهُ، ويُؤَلِّب عليه سَحَرَتَهُ، ومطمحُهُ البعيدُ من التشنيع على موسى بقاؤه في سُدَّةِ الملك،

والحقيقةُ أنه جاءَهُ بالتوحيد الخالص، وإخلاء سبيل بني إسرائيل لا غَيْر، وفي الآية تقرير لزعم فرعونَ أن الذي جاء به موسى هو سِحْرٌ لا مُعْجِزَةٌ، ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ لغرض الإنقاص من قوة معجزات موسى تحدى فرعون موسى بقدرته على الإتيان بخوارق سحرية تضاهي التي جاء بها موسى خشية أن يصدقه بنو إسرائيل، ويَثُورُوا على ملكه، ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أَمَرَ فرعونُ مُوسَى بتعيين موعد للمقابلة بينه وبين سحرته، و إيعاز تنظيم الموعد لموسى لوثوق فرعون بغلبته، ﴿لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ لا نُخْلِفُ الموعد المزمع عقدُهُ نحن ولا أنت، والمكان المعدُّ يجب أن يكون في المنتصف، أي لا ينحاز إلى جهتنا أو جهتك، أو مكانا مستويا: أي أرض مستوية ليتراءى لجميع الناس فعاليات السحرة، وقال: "نَحْنُ" قبل "أَنْتَ" إعلاء لنفسه وإظهارا لقوته، وَنصب "مَكَانًا" على المفعولية لفعل محذوف تقديره: عِدْ، و"سُوًى" اسم وصف مشتق من الاستواء، ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ قال لهم موسى: موعدكم يوم الزينة، وهو يومُ عيدٍ لهم يتزينون فيه، وقيل: يوم كسر الخليج، وهو اليوم الذي يجعلون في النيل منافذ لسقايَةِ بعض المساحات التي يريدون بها زرعا، وقيل: يوم عاشوراء، وأما تحديد المكان فربما هو مقرون بيوم الزينة، أين يضعون فيه مراسيمهم واحتفالاتهم، وقد اختار موسى ذلك اليوم المشهود لوثوقه بالانتصار والغلبة، ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ وأن يُبْتَدَأَ في جمع الناس وقت الضحى، والملحظ في الآية تقييد موسى زمن الموعد بوقت الضحى؛ وهو وقت ابتداء حرارة الشمس بعد طلوعها، لأنه زمن به وضوح الرؤية والمشاهدة، وَضَبْطُ الموعدِ بالتدقيق إشعار بقيمة الوقت والعمر المتاح للإنسان، فوجب على الإنسان اللبيب استغلاله بالنقير والقطمير والفتيل، وألَّا يضيع منه اللحظات التي ألف الناسُ إضاعَتَهَا.

٢٣. حَشْدُ فرعون جنوده، ونصيحة موسى للسحرة وتأثيرها الإيجابي

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (٦٤)﴾.

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ فانصرف فرعونُ عن مجلس اللقاء، ليبتدئ في جمع الحيل والخطط والمكائد التي يكيدُ بها موسى، وبعد زمنٍ أتى بسحَرَتِهِ إلى ساحة المناظرة، وَ"ثُمَّ" تفيد بقاء فرعون لمدة كبيرة في استجماع القوى والسحرة وتدبير أمر يوم الزينة، ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ قَالَ موسى لسحرة فرعون ناصحا ومحذرا قبل وقوع ما أتوا به من السحر: إِنَّ ما أعددتموه من الأوهام والتخيلات والأباطيل لإثبات صدقكم وألوهية فرعون وبطلان آياتي تكذيبٌ عَلَى اللهِ، فلا تختلقوا الأكاذيب والأوهام، وإن آثرتم طريق التمويه لصد الناس عن الهدى فسيأخذكم ربكم بعذاب يستأصل جذوركم، وَ"وَيْلَكُمْ" لفظة دالة على التعجب من حال معينة، وليست للدعاء بالشر، لأن موسى قد أُمِرَ بلَيْنِ الجانب والرفق في الدعوة مع بني إسرائيل، وَ"كَذِبًا" جيء بها لتأكيد معنى الافتراء وهو اختلاق الكذب، "فَيُسْحِتَكُمْ" مِنْ "سَحَتَهُ" إذا استأصله، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ بعدما نصحهم و أنذرهم بعذاب شديد يكسِرُ شوكتهم، وعظهم بِسَوْقِ حالة الأمم المكذبة من قبلهم، فقال لهم: وقد هلك من افترى على الله من قبلكم، والكلام موجه إلى زعيم الافتراء فرعونَ وحاشيتِه و أتباعِهِ، ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أحْدَثَتْ موعظة موسى تنازعا بين سحرة فرعون، مما يدل على تأثير موعظته في بعض النفوس، والتنازع في الأمر: الاختلاف بين مؤيد لفكرة موسى ومعارض لها، وبين مقبل ومحجم على تنفيذ عملية السحر، أو قد يكون كل شخص يريد انتزاع الكلام من الآخر لمواجهة موسى، إلى غير ذلك من الصور المتخيلة، لمحاوَلَة استحضار ما جرى من الوقائع والمشاهد، ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ وبعد تجاذب الآراء اتفقت كلمتهم على رأي أسروه فيما بينهم جميعا؛ ومضمونه: ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ ما هما إلا ساحران، ونحن أكثر من اثنين، فباستطاعتنا التغلب عليهما، والساحران هما موسى وهارون، وقرأ الجمهور "إن هذان لساحران" بتشديد نون "إن" وبالألف في "هذان" وكذلك في "لساحران"؛ وفي المسألة ستة توجيهات للمفسرين، وأرجحها أن تكون "إن" حرف جواب مثل: نَعَمْ، وَأَجَلْ، وهو استعمال من استعمالات "إن"، ﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا﴾ قَصْدُهُمَا بصناعة السحر إخراجُكُم من أرضكم مصرَ، ومرجع هذا الكلام الذي قالوه إلى فرعون، فإنه قد قال لموسى من قبل: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَى﴾ [طه: ٥٧]، فقد يكون قائلوه حضروا ذلك المجلس، أو بلغهم عن طريق السماع، ومن كلامهم

هذا نستخلص أن عقول أتباع فرعون وسحرته مسلوبة التفكير، فهم لا ينطقون إلا بما تلفظت به سيادة ملكهم فرعون، ولا يتشجعون بكل تجرد وإعمال عقل لتمييز الحقائق من الأباطيل، والناس على دين ملوكهم كما يقال، ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ ويريدان أن يكونا سببا في إزالة طريقتكم الحسنى في عباداتكم وطقوسكم وعاداتكم وما اعترفتم به بينكم دينا قويمًا لا يضاهيه أي دين آخر، وهاجس الخوف مما عليه المرء من طريقة العبادة والتفكير وأساليب الحياة مغروسٌ في جوهر الإنسان، لكن عليه أن يقوى على الهواجس والاحتمالات غير الواقعية بتحفيز العقل بالأسئلة المحرجة، الموجهة بوصلةَ الإنسان إلى خيرِ الحق أو إبعاده عن ربقة الباطل، و"الطريقةُ" المذهب والعادة المحمودة، ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ تفرع عن غَيْرَتِهِم على أرضهم مصرَ وطريقَتِهم المثلى التواصي بجمع وسائلهم وهمتهم وخططهم وتوحيد عملهم، ومجموع ذلك هو الكيد، كما عبرت عنه الآية، ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ كَمَا أَمَرَ بعضُهُم بعضا بأن يصيروا صفا واحدا لا مختلطين، لأن مظهر اصطفافهم يزيد في نفوس الرائين قوة وإعجابا بهم، والإتيان هنا ليس بمعنى المجيء، بل هو الصيرورة وإعادة الترتيب، أي: صيروا صفا واحدا، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ كلام ذيلوا به إِجْمَاعَهُم، والمعنى: الفوزُوالنصرُ اليومَ للغالب، وغايتُهُ الحط من قَدْرِموسى، وطمأنَةُ النفوس بالانتصار.

٢٤. المناظرَةُ بين موسى وسحرة فرعون، و إيمانهم بالله ﷻ

﴿قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍوَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُحَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَ أَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَلَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِوَاللَّهُ خَيْرٌوَ أَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ

عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦)﴾.

﴿قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ خيروا موسى في البدء بالإلقاء أو تأخيره بعدهم، لاعتقادهم النصرَ، وعبروا بالإلقاء لعلمهم من قِبَلِ فرعونَ بإلقاء عصا موسى و انقلابها حية تسعى، فَأَعَدُّوا سحرا مجانسا لمعجزة موسى، ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ قال لهم موسى متأدبا معهم ومتيقنا من هزيمتهم: بل اشرعوا أنتم في الإلقاء أولا، ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ فلما ألقوا حبالهم وعصيهم خُيِّلَ إلى موسى أنها ثعابين تسعى بسبب سحرهم، أي: صُوِّرَ له المشهدُ في مخيلته ثعابينَ تتحرك وتتموج، "فَإِذَا" فجائية، تُقَدِّرُسرعةَ انطباع السحر في نَفْسِ موسى، وَ"مِنْ" فِي قَوْلِهِ: "مِنْ سِحْرِهِمْ" للسببية، مشابهة لقوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾ [نوح: ٢٥]، وأما طرائق جعل الحبال والعصي تسعى، فقد أسهب فيها المفسرون والإخباريون، والبحث فيها موكول لعلماء المادة في العصر الحاضر، فليُطَّلَعْ عليها في مظانهم ومصادرهم، ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ تَرَتَّبَ عن تخيله -موسى عليه السلام- إضمار خوف في نفسه، دون إبداء ملامحه على وجه، وخوفه أمر طبيعي، فموسى كأي إنسان يخاف من أمر مهيب، مع إيقانه بأنه هو المنتصر وصاحب المعجزة، وسبب توجسه راجع إلى تفوق السحرة عليه بكثرة ما ألقوا، فخشي أن لا يتبعه الناس لما رأوا من هول عظيم مقابل امتلاكه عصا واحدة، وَ"أَوْجَسَ" بمعنى: أضمر واستشعر، "خِيفَةً" اسم هيئة من الخوف، أريد به مطلق المصدر، والدليل على خوف موسى من هيمنة السحرة عليه ما جاء الآية التالية: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ طمأنه الله وهدأه من خوفه بقوله: لا تَخَفْ، إنك أنت المنتصر المهيمن عليهم، ولا نشك طرفةَ عيْنٍ في أن موسى كان يوقن بوعد ربه، لأن المختلج في نفسه ظرفي مؤقت نتيجة تغالب المشهد على قواه الإدراكية، فَقَدْ قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، ولا جرم من أن يستدرج الكافر ليُعْلَمَ ثبات المؤمن، وقد قال تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۞ مَتَاعٌ قَلِيلٌ...﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧]، ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ بعد أن اكتسب موسى شحنة إيمانية قوية من ربه، أمره بإلقاء العصا التي في يمينه، فإذا بها تبتلع ما صنعه سحرة فرعون من الحبال والعصي، عَبَّرَ عن العصا بِـ "مَا" الموصولة تذكيرا له

بحادثة التكليم: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:١٧]، ليعلم أنها منقلبةٌ لا محالة كانقلابها يومئذ، وَ"مَا صَنَعُوا" دلالة على التحقير والتهوين، فلم يَعُدُّهُ أصلا شيئا ، وَقرأ حفص لوحده: "تَلْقَفْ" بسكون اللام وفتح القاف، وأما الجمهور فقرؤوا بفتح اللام وتشديد القاف "تَلَقَّفْ"، ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ إن الذي افتعلوه تدبيرُ سَاحِر، والمراد من قولهم: تدبيرهم هو من قبيل تدبير الساحر، ولا ارتقاء لكيدهم إلى عظمة معجزتنا، ويعلق الله على أمر السحرة بقوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ ولن ينجَحَ الساحرُ حيث كان وحلَّ، أي هو في خسارة دائمة، وعُبِّرَ بـ"أَتَى" دون غيرها، لكون معظم السحرة آتين من نواحي مصر، ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ وعلى إثر مشاهدة السحرة عصا موسى تبتلع ما صنعوه خروا سجدا؛ وسجودهم دليل على تعظيم ما رأوه من الآيات، و إيقانٌ بأن ما جاء به موسى لا يدخل ضمن دائرة السحر والحيل، وليس بإمكان القدرة البشرية الإتيان بمثله، والإلقاء: الطرح على الأرض، وأُسْنِدَ الفعل للمجهول لأنه لا ملقي لهم إلا أنفُسُهُم، ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ أُلْقُوا على الأرض قَائِلِينَ: آمنا برب هارون وموسى، ومعنى إيمانهم: تصديقهم بأن ما جاء به موسى وهارون هو من صنع ربهما، وكفرهم بفرعون وطريقته، وتقديم هارون على موسى رعاية للفاصلة، ويجوز من تقديمهم هارون على موسى لكبر سنه، وتأخيره في الموضع الآخر بالأعراف لكونه صاحب الرسالة والمعجزة، فيكون قد صدر منهم قولان مختلفان باختلاف المرادين، ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ بعد فَتْحِ فرعونَ بابَ المناظرة مع موسى وعَلِمَ بمشاهدَتِه أَنَّ عدوَّهُ موسى هو الغالب والمنتَصِر، اختلق مصيدةَ الاستئذان لسحرته ليبرربها عقابَهُ لهم، لأن معاقبة السحرة لمجرد الإيمان بانتصار موسى ظلم بالنسبة إليهم طبقا لتنظيمات المناظرة وأصولها، فقال لهم مستنكرا فعلتهم: أرضختم لموسى من غير إذني؟ لأنه رباهم على الانقياد له في كل صغير وكبير، وأنهم لا يملكون من أمرهم شيئا، ولا يصح عودة الهاء في "لَهُ" إلى رب موسى، لأنّ تعدي الإيمان باللام يكون لغير الله تعالى، وبالباء لله، كقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، وقوله أيضا: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ [يوسف: ١٧]، وأردف قوله بعبارته: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ إن موسى زعيمكم الذي علمكم السحر فتواطأتم معه ضدي، لتذهبوا بملكي وطريقتي المثلى، وتصييرُ موسى زعيما للسحر ومعلما لسحرته حيلةٌ ماكرة لصد الناس عن الإيمان له، ثم تَوَعَّدَهُم بالنكال الشديد جزاء إيمانهم

لموسى قبل أخذ الإذن منه فقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ فلأقطعن لكل أحد منكم يده اليمنى ورجله اليسرى، أو العكس، والتقطيع: مبالغة في القطع، "مِنْ خِلَافٍ" أي مختلفة، بمعنى من جانبين مختلفين، ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ ولأربطنكم على جذوع النخل، وأدق عليه بمسامير، وَالتصليب: مبالغة في الصلب، وعدل عن حرف الاستعلاء "على" إلى حرف الظرفية "في" تشبيها لشدة تمكن الجسد من الجذع، وتصويرا لشدة الدق، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ وستعلمون بعد معرفة عقابي من هو أغلظ عذابا وأطول أنا أم موسى؟ و إيعاز العذاب لموسى على اعتبار ما توعدهم به من العذاب الإلهي حال عدم إيمانهم برب العالمين، ولكن رغم كل ذلك التهديد والوعيد الشديد فَقَدْ أظهر السحرة استخفافَهم بفرعون، بعدما رأوا من الآيات المعجزات؛ وهذا في قوله: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ لن نُفَضِّلَ اتباعَك وعبادتَكَ في أرض مصر على حسابِ ما وصلَنَا من الدلائل الواضحات على أن موسى رسولٌ من رَبِّ العالمين، والإيثار هو التفضيل، ومن البينات التي جاءتهم: أَنَّ مَنْ كانَتْ قدرَتُهُ متعلقة بمعجزة العصا فَهُوَ قادِرٌ على أن يَرُدَّ عذابَ أيٍّ كان يحول دون الإيمان برب المعجزات، ولذلك صدحوا قائلين متيقنين بناصرهم ومخلصهم من بطش فرعون: ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ وَلَن نُفضِّلَك على الذي خلقنا وعَلِمَ أَمْرَنَا فنَفِّذْ مَا أَنْتَ منفذ من العذاب، فالفاطر هو الأولى بالإيثار، و أنت يا فرعون من خلق الله تعالى، لا تملك ضرا ولا نفعا، ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ قضاؤك يا فرعون بما تريد لا يتجاوز الحياة الدنيا القصيرة، ونحن نرجو من ربنا أن يجزينا أحسن الثواب والإنعام في آخرته، ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ إنا أسلمنا وجوهنا لرب العالمين، ليتجاوز عَمَّا ارتكبناه من الشرك وما دونه من المعاصي، ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ ويغفر لنا السحر الذي فعلناه بإكراهك وإجبارك، لطمسِ نور معجزة موسى عليه السلام، و إبطالِ ألوهية الله تعالى، لأن إكراهك ليس بحجة لنا عند ربنا، ويستفاد من الآية: أن السحرة قد خطر ببالهم حقيقة تفوق معجزة موسى على سحرهم قبل المناظرة، فخلصوا أنها ليست سحرا يمكن مقارعته، ولكنَّ فرعون ألزَمَهُم على مجابهة موسى، ولا أدل على ذلك دعاؤه موسى للمناظرة، وجمعُ كيدِه، وفي الآية عطف خاص "الإكراه على السحر" على عام "خَطَايَانَا"، ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ وسبيل ربنا خيرٌ لأَنْ يُتَّبَع، ومرادهم: عبوديته ورضاه وفضله، وجزاؤه في الشر والخير في الآخرة أدوم وأطول من

جز ائك، فلا يهولنا قولُك: "وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَ أَبْقَى"، وتفرع عن قولهم تقرير الحقيقة التالية: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ﴾ إنه من يلقَ ربه بجرم، سواء شركا أو كفرا أو معصية أصر عليها، فإن مصيره الدائم جهنم، والجرم في القرآن هو مطلق الذنب، فلا يقيد بالكفر والشرك دون المعاصي والخطايا، والدليل على ذلك: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ [الكهف: ٤٩]، فالمجرم مصطلح يطلق على كل نفس شقية، كما أن المؤمن العامل الصالحات يطلق على النفس السعيدة، فالموحد العاصي المصر على خطاياه لا يمكن انضواؤه في القسم الثاني: "وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ" لأنه قد عمل السيئات، فهو يندرج بالضرورة في القسم الأول، ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ لا يموت فيها فينقضي عذابه، ولا يحيا فيها حياة طيبة كحياة أهل الجنة، و إنما هو في دوامة من عذاب وشقاء أبد الآبدين، ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ ومن يُبْعَثْ إلى رَبِّهِ مؤْمِنًا بمقتضيات الإيمان وقد أثمر إيمانُهُ أعمالًا صالحة وتوبةً من جميع زلاته وخطاياه، ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ فأولئك جزاؤهم اعتلاء الدرجات العلى، وسيق اسم إشارة الجمع "فَأُولَئِكَ" بعد الإفراد "ومن يأت ربه" في سياق أصحاب الجنة دون سياق أهل جهنم، لأن أهل الجنة يعيشون معا في تراحم وَوِدَادٍ وألفة، وأما أهل النار فَيَحْيَوْنَ في عداوة ونفورولعن وتمزق الصلات بينهم، ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ لهم المنازل العليا في جنات عدن، والعدن: الإقامة، وقيل: عَلَمٌ لموضعها، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ تجري من تحتها أنهار من ماء وخمر ولبن وعسل مصفى، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين فيها دوما، لا يخرجون منها، ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ وتلك الجنات خالصة لمن تطهر من الشرك والمعاصي، والتزكي: التطهر، أكد إلحاق النعيم إلى المتزكي بعد ذكر لازمه وهو الإيمان والعمل الصالح، ليقطع عن المجاهرين بالمعاصي الآملين عفو ربهم دون الإنابة إليه كلَّ صلة بالجَنَّةِ، وقوله تعالى: "إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا ... مَنْ تَزَكَّى" قيل هو كلام منسوب لله ﷻ، والأولى أَنَّهُ كلام للسحرة المؤمنين.

٢٥. عاقبة بني إسرائيل وفرعون وجنوده، وفضل الله على بني إسرائيل

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩)

يَابَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢)﴾.

بعد حادثة إيمان السحرة طوت السورة الكثير من المشاهد والوقائع من قصة موسى مع فرعون، وقد ذكرت في سياقات أخرى كسورة الأعراف وغيرها، لتواصل حديثها في هذا الموضع مع ذكر قصة خروجه عليه السلام مع بني إسرائيل والأحداث التي تلتها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ ولقد أمرنا نبينا موسى بوحي منا أن سِرْ ببني إسرائيل ليلا متوجها بهم إلى ساحل البحر، والإسراء كان بعد مخالفة فرعون وعوده المتكررة بإرسال بني إسرائيل مع موسى عليه السلام، والإسراء: السير ليلا، وإنما كان ليلا خوفا من بطش فرعون بهم، وَوُصِفَ بنو إسرائيل بالعُبُودية لله "عبادي" تشريفا لهم ورحمة بهم، وردا على فرعون الذي استعبدهم، ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ لما تَصِلُ شاطئَ البحر اجعل لعبادي سبيلا في البحر يبسا، يسيرون عليها، وَالضرب هنا بمعنى الجعل والاتخاذ، كقول أحدهم: اضربوا إلي بسهم، وليس كالضرب في قوله: ﴿أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ [الشعراء: ٦٣] بمعنى: الضرب المشتهر في الفهوم، وَ"يَبَسًا" مصدر وصف به للمبالغة في اليبوسة: أي طريقا جافا قاحلا، ﴿لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ وأثناء اتخاذكم من البحر طريقا لا تخف يا موسى لحاقا من فرعون وقومه، ولا تخش شيئا آخر مطلقا؛ كبطش فرعون أو الغرق في البحر، لأن البحر كان عن يمينهم وشمالهم، "دَرَكًا" اسم مصدر أي إدراكا، والخشية أشد من الخوف، وتأخيرها للفاصلة، وحذف مفعول "تَخْشَى" فلم يذكر ما يخشى منه لإفادة العموم، ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ فَتَبِعَ فرعونُ وجنودهُ موسى وأتباعَه، وسلكوا معهم الطريق اليبس، ولفظة الإتْبَاع تصور لنا كونهم وراء موسى مباشرة، وَ"أَتْبَعَ" مرادف لِـ"تَبِعَ"، ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ فأغرقهم البحر غرقا لا يعلم هوله وعظمته إلا الله تعالى، وَ"غِشْيَانُهُ إِيَاهُمْ" أي غطاهم، بمعنى: غَرِقُوا، وَ"مَا غَشِيَهُمْ" تركيب دال على هول الغرق وفظاعته، بحيث لا يبلغ كُنْهَهُ وَوَصْفَهُ أحد إلا الله سبحانه، ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ وأوقع فرعون قومه في الضلال والجهالة والتكذيب، فكانت عاقبتهم وخيمة، وبمعنى آخر: لو كان صاحب علم وهدى -كما زعم- لنَجَّى نفسه وقومه من الخاتمة السيئة، ﴿وَمَا هَدَى﴾ وما

أرشدهم إلى الخير الذي ينفعهم في دينهم ودنياهم، وزاد "وَمَا هَدَى" ولم يكتفِ بـ "أضل" لأن عدم الإرشاد ليس شرطا للوقوع في الضلال، ومعنى ذلك أن فرعون لم يكتفِ بعدم إرشاد قومه إلى الخير، بلى فوق ذلك أضلهم عنه، والفاصلة استهزاء بفرعون وتهكم به، لأنه ادعى العلم والرشاد فقال: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ خطاب لبني إسرائيل زمن موسى عليه السلام، بعد مضي حدث غرق فرعون وجنوده، ذُكِّرُوا فيه بنعمة التنجية من عدوهم فرعون، إذ كان يستعبدهم ذكورا و إناثا، ويُذَبِّحُ أبناءهم، ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ وواعدنا نبيكم موسى للمناجاة و إنزال التوراة في سفح جبل الطور الأيمن، فامتثل وتمت المواعدة، و إنما نسبت المواعدة إليهم لكون مضامين المواعدة راجعة إليهم بالنفع والخير، "الأَيْمَنَ" وُصِفَ باليمين باعتبار جهة المُستَقْبِل مطلع الشمس، إذ ليس للجبل يمينٌ مُعَيَّنٌ، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ وقد تفضلنا عليكم حين تَيْهِكُم بإنزال المن والسلوى، و"الْمَنَّ": الطرنجبين أو بالتاء "الترنجبين" وعلى هذا أكثر المفسرين، وقيل: صمغة حلوة، وقيل عسل، وقيل شراب حلو، وقيل: خبز الرقاق، وقيل: مصدر يعم جميع ما من الله به على عباده من غير تعب ولا زرع، "السَّلْوَى": اسم جنس جمعي، واحدته: سَلْواة، وهو طائر بَرِّيٌّ لذيذ اللحم سهل الصيد كانت تسوقه لهم ريح الجنوب، ويدعى أيضا: السُّمَانَى، وقيل: ليس هو السماني بعينه و إنما قريب منه ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ قائلين لكم: كلوا من طبيات ما أكرمناكم به، وَالطَّيِّبُ: وصف جامع لقيدين هما: المذاق الجيد، والحلال، ولنا في ترتيب النعم المذكرة بها بنو إسرائيل: الحرية والعدل "نجيناكم من عدوكم"، الدين "واعدناكم جانب الطور الأيمن"، الرزق الحسن "المن والسلوى"، عظة قيمة، ومنهج رشيد، وذلك أنه لا ممارسة ممتعة للدين إلا في جو ملائم من العدل والحرية الشخصية، ولا عبادة نشطة متكاملة إلا في ظروف اقتصادية حسنة، ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ ولا يكون ما رزقتكم به من الطيبات سببا للكفر وترك الشكر والإعراض عن عبادة المنعم، فاحذروا نسيان المنعم والإسراف والبطر والاستعانة بالأرزاق على المعصية، والطغيان: أشد الكِبْر، ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ فينزل عليكم سخطي و انتقامي -حَالَ الطُّغْيَان-، ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ ومن يُصَبّ عليه عذابي وبطشي فقد هَلَكَ وشقيَ، وفعل "هَوَى" سقوط من الأعلى، أو وقوع في الهاوية، واستعير هنا ليدل على الهلاك، ﴿وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ

تَابَ﴾ وإن اجترحت أيديكم معصيةً فنقضتم ميثاق العبودية مع ربكم فإني غافر الذنب ومكفر السيئة لمن أناب إلي وارتجى العفو مني، واستغفر لذنبه، وندم على ما قدمت نفسه، و أقلع عن خطيئته فور الخطأ، ﴿وَآمَنَ﴾ و أتبع توبته تجديدَ الإيمان في قلبه، لأن الإيمان الصادق الخالص مصدر للطاعة وطاقة ربانية لحصول الهداية والالتزام العملي، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ وأردف إيمانه بإجهاد نفسه في الأعمال الصالحة بجميع أنواعها، وفي هذا استدراك للأعمال الصالحة الضائعة منه حال انغماسه في لجج الشهوات والمعاصي، ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ ثم التزم الهدى واستقام عليه إلى الممات، لأنه لا اعتبار لتوبته إن نكث مرة أخرى، وَ"ثُمَّ" للإمهال والتأخير، والواوات العاطفة تفيد مبادرة الإنسان في تحصيل تلك الشروط فورَتذكر الذنب، والأمر ليس فيها للتراخي.

وهذه الآية الكريمة تبين لنا قانون الله تعالى في غفران الذنوب فهو غفران للتائبين لا للمصرين، ولا مطمع لأحد في غفران ذنوبه ما دام مصرا عليها غير نادم ولا مقلع عنها.

٢٦. مُسارعة موسى إلى ربه، وإضلال السامري لقومه

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩)﴾.

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى﴾ قلنا لموسى عند مجيئه إلى الميقات للمناجاة: أي شيء جعلك يا موسى تستعجل المجيء إليَّ وتُعجّل في مفارقة قومك لتحضر إلى المناجاة قبل الوقت الذي عينه الله لك؟ وفي الوقت نفسِهِ لم يكن موسى قاصدا هجر قومه وإهمالهم، بل كان يروم إلى شيء آخر أبانَهُ في قوله: ﴿قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ قال موسى لربه: قومي هم مِنْ خَلْفِي لا يَبْعُدُون عَنِّي إلا بقليل، وتقدمي عليهم كان بغيةَ الحصول على رضاك، ورغبة في تلقي شريعتك، والأثر بفتحتين: ما يتركه الماشي على الأرض من علامات، تقول: جاء على أَثَره؛ بمعنى: جاء مواليا له، وكأنه

ماسحٌ لآثارسيره، ومعنى الاستفهام "وَمَا أَعْجَلَكَ..." الإنكارعلى موسى، والمعنى: من اللائق بك أن تكون في وسط قومك تتفقد حالهم وتترصد ما قد يقع لهم من الحوادث والعقبات، وفي الآية حض للمؤمن على أن يسعى في إرضاء ربه بالإقبال على طاعاته المتنوعة بكل شوق وحب، ولا يتكاسل في أدائها، ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ قال الله ﷻ: فإنا قد اختبرنا قومك بعد تقدمك عليهم مفارقا لهم، ولعل الحكمة من افتتان القوم إشعارموسى بضرورة ملازمة قومه، لأنهم لا يزالون في حاجة إلى مزيد من الإرشاد والتعليم والمصاحبة، وبيان طبيعة الفتنة في قوله: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ وأوقعهم السامريُّ بشبهاته في مصيدة الضلال، وألجأهم إلى عبادة غيرالله تعالى، فلم يلتحقوا بموسى في جبل الطور، وأما تحديد شخصية السَّامريّ فاختلف فيها المفسرون على أقاويل عدة، فليرجع إليها في مظانها، إلا أنه يبدو أنه رجل ذو حنكة وخبرة، وشجاعة و إقدام، فبمفرده استطاع التأثير في القوم وقام بتغيير مسارعبوديتهم، وأما نوع الإضلال وكيفيته وتفاصيله فيسيأتي بيانهُ في الآيات المواليات، ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ فرجع موسى إلى قومه بعد إتمام أربعين ليلة غاضبا، لأنهم فعلوا ما يسخط الله وهو في مناجاةٍ لإرضاء ربه، ومنكسرَ الخاطر نادما على ما آل إليه قومه بسبب تفريطه غير المقصود، ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ قال لهم موسى بعد وصوله إليهم: يا قوم؛ ألم يعدكم ربكم وعدا حسناً أن ينزل عليكم التوراة؟ والإشارة إلى ذلك الوعد الحسن في وقوله: "وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ"، والاستفهام إنكاري توبيخي، لأنهم أَمَّرُوا السامري وهو من أنكرَ عليهم الذهابَ إلى جبل الطور لتلقي الشريعة، وقال موسى لقومه مستنكرا عليهم: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ أفطالت عليكم مدة العهد، فاستثقلتم حضورَهُ؟ وكأنه قال لهم: ليس زمنُ الوعدِ الحَسَنِ بعيدا عنكم لِيكون سببا في امتناعكم، ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بل أردتم أن ينزل عليكم غضب من ربكم بسبب ما وقعتم فيه من الضلال؟، وحالهم كحال من يحب حلول العذاب عليه، والاستفهام إنكاري أيضا، وَ"أَمْ" للإضراب والإبطال بمعنى بل، ﴿فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ **الفاء ، للترتيب والتفريع على ماقبلها، كأنه قيل : أنسيتم الوعد بطول العهد فأخلفتم موعدي خطأ؟ أم أردتم حلول الغضب عليكم فأخلفتموه عمدًا؟.**

وَ"مَوْعِدِي": مَا وَعَدَهُمْ به من إقامة الدين والثبات عليه، ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ قال القوم لموسى: لم نكن لنجرُؤَ على إخلاف موعدِك باختيارنا وإرادتنا، وقد قرئت "بِمَلْكِنَا" عند بعض القراء بضم الميم "بمُلْكِنَا"، وآخرين بكسرها "بمِلْكِنا، ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ ولكن ما نعتذربه إليك: أننا حملنا أحمالا من زينة قوم القبط، من ذهب وفضة، وقد استعارها بنو إسرائيل

لغرض من الأغراض والأقوال في ذلك كثيرة، ولفظة "حُمِّلْنَا" قد وردت عند بعض القراء بفتح الحاء وفتح الميم المخففة "حَمَلْنَا"، وَالأوزار بمعنى الأثقال أي: أثقالا من زينة القوم وحليهم التي حملناها، ﴿فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ فألقينا حُلِيَّنَا في نار السامري للصياغة، ولم يستثن السامري نفسه من عملية الإلقاء، وأما المادة الملقاة من قِبَلِهِ؛ فقيل: شيء من الزينة، وقيل: تربة من أثر الرسول، ولذلك غيروا كلامهم فلم يقولوا: فقذفناها وقذف السامري، ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾ فأخرج لهم السامري من الحلي المذابَة المنصهرةِ عِجلاً مجسدا بصورته وشكله وقوائمه وجنباته، وهو عجل ذو هندسةٍ متقنةٍ وتركيبَةٍ دقيقةٍ تسمح بصدور صوت الخُوَار، وهو صوت شبيه بالصوت الحقيقي للعجل، وليس صحيحا من زعم أنه أخرج لهم عجلا حقيقيا من دم وعظم ولحم، ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ قالوا: هذا العجل إلهكم وإله موسى، والقائلون: السامري ومن ضَلَّ مَعَهُ، وقولهم هذا كأنه يوحي للسامع بمعرفتهم للإله من قبل، لأنه قد تمكن من أذهانهم العجل الذي كانوا يعبدونه في مصر وَيسمونه ايبيس، إلا أن مما زادهم إعجابا به صوت الخوار الخارج منه، ﴿فَنَسِيَ﴾ فنسي السامري ما تلقى من الهدى والبيان فَضَلَّتْ به نفسه، فيكون الضمير عائد إلى السامري، وقيل: "فَنَسِيَ" كلام تابع لقول السامري، فيكون المعنى: ترك موسى إلهه العجل وطفق يطلبُ إلها لا يظهر للعيان في جبل الطور، ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أفلم يتحقق عندهم عدم استجابة العجل لأقاويلهم ومناجاتهم؟، بينما يَجْفُونَ إلهًا خلقهم، وكلم نبيهم في جبل الطور، فكيف يؤثرون عبادة عجل لا يسمع ولا يفقه قولا ولا أمرا، على عبادة رب السماوات والأرض الذي يعلم سرهم ونجواهم ويسمع أحاديثهم؟، والاستفهام في الآية إنكاري، لأن الله أنكر عليهم عدم مشاهدة حال عجلهم مع قوة ظهوره، وَ"يَرْجِعُ" أي: يَرُدُّ ويُجِيبُ، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ وكيف بهم اعتقدوا الألوهية في عجل لا يملك لهم ضرا ولا نفعا؟، وذهلوا عن إلههم الذي نجاهم من بطش فرعون وقومه، وتفضل عليهم بعظيم نعمه، وقدم الضر على النفع لأن إزالة الأخطار أولى من جلب المنافع، فإذا كان عِجْلهم لم يرفع عنهم ضرا، فبالأحرى لا يسدي لهم نفعا.

٢٧. توبيخ موسى لهارون، وبيان كيد السامري ومصيره

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) قَالَ يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨)﴾.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ﴾ وكيف بهم اتخذوا العجل إلها من دون الله ولقد وعظهم هارون وحذرهم من قبل رجوع موسى من جبل الطور، ﴿يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ نبههم هارون بقوله: يا قوم؛ لم يكن إضلالكم إلا بالعجل، وأنتم تَدَّعُونَ الهدى فيه، ودلالة "يَا قَوْمِ" تفيد التقريب والشفقة، والتمهيد للنصيحة، ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ وإن ربكم الرحمن الأَوْلى استحقاقا للعبادة، فاتبعوني في توحيد الرحمن بالألوهية، وأطيعوا أمري بترك عبادة العجل، ولفظة "الرَّحْمَنُ" إغراء للتوبة والرجوع إلى الحق، وجملة ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ ...﴾ دليل عقلي على استحقاق الرب للألوهية، وأما جملة: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ ...﴾ دليل سمعي تذكيري، وَقُدِّمَ العقلي على السمعي لأنه الأولى بالتصديق والقبول، ولتوافق قَوَانينه مَعَ الحقائق الكبرى المودعة في الكون، ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ أجابوا نبيهم هارون بقولهم: لن نزال ملتزمين بعبادة العجل حتى يعود إلينا موسى من جبل الطور، والعكوف: الملازمة بقصد القربة والتعبد، ﴿قَالَ يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ ولما رجع موسى من الميقات حاور أخاه هارون قائلا: يا هارون ما الذي صَدَّكَ عن اللحاق بي أنت والباقين على الإيمان حين رأيت قومك ضلوا بعبادة العجل؟ وقد أكد موسى عليه السلام على ضرورة التحاقِ هارون به؛ لأنه في نَظَرِهِ إذا فارق هارون القوم وهو في حالة غضب واستنكار، لإخبار موسى بشأن ضلالهم، سيفضي بهم إلى الكف عن عبادة العجل ما داموا معلقين أمر عبادة العجل برجوع موسى، والسؤال في الآية للإنكار، ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ تهديد

وتوبيخ مفرع على التساؤل الأول، لأنه قد أمره حينما أقامه خليفة في قومه؛ بقوله:﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، والعصيانُ في رأي موسى: بقاء هارون وسط المفسدين، وعدم اتباع سبيل موسى، ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ نادى هارون أخاه طالبا منه الرقة والحنين، قائلا: يا ابن أمي لا تأخذ بشعر لحيتي ولا بشعر رأسي، لأنه عندما جذبه من شعره خاف أن يلطمه، وقدم اللحية على الرأس لأن الأخذ من الأول أشد ألما و أنكى إهانة، وعدل عن التعبير بالأخوة إلى الإفصاح بالأمومة لأن ذكر الأم تذكير بآصرة الولادة من بطن واحد، والرضاع من لبن واحد، وهي من أقوى أواصر الأخوة، ثم بين له صواب سياسته واختياره في المسألة بقوله: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ مكوثي في قومي وعدم اتباعك ليس عصيانا لأمرك بل هو محاولة للحفاظ على وحدتهم وعدم تفرقهم، لأن زَجْرَ قومِه ومفارقَته لهم قد تكون إيذانا بنشوء حروب وعداوات بين المؤمنين والضالين، فهو ببقائه بينهم متغاضيًا عن فعل عبادة العجل سيكون سببا في سكون الضالين، واصطبار المؤمنين على الوضع مقتدين بنبيهم هارون، وفي سياسة هارون هذه تقديمٌ لمصلحة حفظ الوحدة والأنفس والأموال على مصلحة حفظ أصل الشريعة -العقيدة- عند تعذر المحافظة على الشريعة إلا بفساد كبير، وهي سياسة رشيدة، ولا أدل على ذلك إقرارها آية في القرآن، وعدم التعليق عليها بالخطإ والزيغ، ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ وقد خَشِيتُ أن تقول لي: ولم تراع وصيتي لك فيهم، فعملت بما رأيته الأنسب في الإصلاح، تحقيقا لقولك: "وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ" ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِيُّ﴾ بعدما فرغ موسى من لوم هارون، توجه إلى رئيس الإضلال "السَّامِرِيّ" قائلا له: فما طلبك يا سامري؟ ولعل موسى لم يعنف القول مع السامري كما عنفه مع هارون لكونه لم يكن من بني إسرائيل، ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ قال السامري: علمت بما لم يعلموا به، وبَصُرَ بالشيء إذا علمه وتفطَّن له، وهو مرادف لأَبْصَرَ أي نَظَرَ، إلا أن الأول فيه قوة الإبصار، فتؤول هنا بمعنى العلم، كقوله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، وقوله ﷻ: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وبالتالي تصرف المعاني في الآية إلى قوله "... فَنَبَذْتُهَا" إلى المجازية لا الحقيقة، فيكون العلم الذي علمه هو علم صناعة التماثيل، الذي به استطاع إنجاز خوار العجل، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ فأخذت نصيبا قليلا من تعليم الرسول موسى، ولكني

أهملته وتخليت عنه، والمعنى: كُنْتُ ذا معرفة يسيرة بشريعة موسى لكني كفرت بها فاتخذت العجل إلها من دون الله، وذهب الجمهور في تفسير الآية إلى أن القبضةَ التي قبضها السامري قبضةٌ من تراب أخذها من أثر حافر فرس الرسول جبريل، فألقاها على العجل المصنوع الذهبي فصار جسدا حيا، ، ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ وكذلك زينت لي نفسي الأمارة بالسوء فِعْلَتِي فَفَعَلْتُهَا، أي: لم تكن مستندة إلى سلطان الشرع والعقل، والتسويل: تزيين ما ليس بزين، أو تجميل القبيح، ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ قال موسى للسامري: فاخرج من بيننا، فإن لك وعيدا في الحياة الدنيا: أن تقول لا مساس، أي: سيكون ذا حالة معينة من الوحشة أو المرض فيقول للناس: لا تقتربوا مني، لا تمسوني، فينفر عنه الناس جميعا، وَدلالةُ "فَاذْهَبْ" قد تكون للزجر وعدم الاكتراث بحاله، "مِسَاسَ" مصدر مَاسَّ، للمفاعلة بين الاثنين، وطبيعة الوعيد مضادة لفعلة السامري، فهو قد أراد اجتماع الناس حول إلهه، فعاقبه الله بتفرقهم عنه، ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ وأما وعيدك في الآخرة فإن لك موعدا للحساب والعقاب لن يؤخره الله عنك، ولن يكون بمقدورك إخلافه، ﴿وَ انْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ وقال له موسى متهكما به محتقرا له: انظر إلى معبودك الذي دمت عليه عاكفا ماذا سنفعل به؟ ونسب الإله إليه لكونه صانعه ولم ينسب للتابعين لكونه رئيسَ ضلالِهم، ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ لنذيبنه بالنار فيفقد شكله ويصير أجزاء صغيرة، ﴿ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ثم لنذهبن بجزئياته وذراته في البحر إذهابا، أي: لا يَبْقَى مِنْهُ شيء يُنْتَفَعُ بِهِ، والنسف: تفريق وإذراء لأجزاء الشيء، والتأكيد باللام والنون إشارة إلى أنه لا يخشى انتقامهم وثورانهم ضده، ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وفي آخر كلامه مع السامري صوب موعظته نحوه ونحو أتباعه جميعا قائلا لهم: ليس لكم إله إلا الله، ولا إله معبود بحق سواه، وسع علمه جميع الموجودات الخفية والظاهرة، وأحوال الشهادة والغيب، وليس لمعبودكم العجل نزر من هذه الكمالات العليا، فاكفروا بعجلكم وآمنوا بالله الواحد الأحد.

٢٨. جزاء المعرض عن القرآن الكريم، وبيان أحوال الأشقياء في المحشر

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤)﴾.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ فكما قصصنا عليك سيرة موسى مع فرعون والسامري، قصا محكما دقيقا معبرا، كذلك سنقص عليك من أخبارمن قد سبقك من الأمم الماضية وأحوالها وسقطاتها، ومعنى: "كَذَلِكَ" تشبيه الشيء بنفسه، ويلجأ إلى هذا حين لا يفوقه غيره في بابه، ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ وقد أنزلنا عليك يا محمد من لدنا قرآنا عظيما، فيه ذكرى وتبصرة، والآية هذه إيماء إلى أن ما يقص من أخبار العهود الماضية ليس هو من قبيل الطرفة ومتعة الحديث، و إنما المقصود منه التذكرواستعادة الصواب و انتهاج سبيل المحِقّينَ المخلصين، وأطلق على القرآن الكريم اسم الذكر، لأنه يذكر بالله تعالى، وأحوال المصير، والسنن الإلهية، والغاية من العبادات، والتوجيهات والإرشادات المعينة في صلاح الفرد والمجتمع والأمة، أي: يزيح عن الإنسان ظلمات الغفلة والجهل والنسيان، وتنكير "ذِكْرًا" للتعظيم والتبجيل، "مِنْ لَدُنَّا" تأكيد لمعنى: "آتَيْنَاكَ" وإشارة إلى شأن القرآن وعظمته، ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ وَمَنْ لم يُقْبِل على القرآن الكريم إقبال الشوق والتعظيم، واحتقر حقائقه ومضامينه، واستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، ولم يتقيد في و اقعه بأوامره وإرشاداته فإنه حاملُ إثمٍ عظيمٍ يومَ القِيَامَةِ، بمعنى: سيثقله العقاب المخصص لذلك الإثم ويتحمَّلُه، ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ مقيمين في الوزر، بمعنى: العقاب، أي: عقابهم دائم لا يفنى ولا يزول، ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ هم مَسُوؤُون بحملهم يوم القيامة، أي: سيسوؤهم وزرهم ولا يُحْسِنُ إليهم، وأعاد ذكر "يَوْمَ الْقِيَامَةِ" لزيادة التخويف والتهويل، وضميرساء مستتريفسره التمييز "حِمْلاً"، وهو اسم بمعنى محمول، كالذبح بمعنى المذبوح، ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ بدل من يوم القيامة، يوم يُنْفَخُ في الصور، والمراد بها النفخة الثانية وهي نفخة البعث، وليس النفخة الأولى نفخة الموت، لقوله: "وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ ..."، والنفخ بواسطة ملك مُوَكَّلٍ بذلك، ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ

زُرْقًا﴾ يوم النفخ نحشر الأشقياء -غير المتقين من الكفار والمشركين والمنافقين والموحدين المصرين على معاصيهم- إلى أرض المحشر زُرْقَ الْعُيُونِ، لأن زرقةَ العين وسَوَادَ الوجه ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، يشكلان منظرا مشوها قبيحا، أو زُرْقَ الأجساد كأنما أصابتها نار فازْرَوْرَقَتْ، أو يراد بِـ: زُرْقًا أي عُمْيًا، لأن العين إذا ضَمُرَتْ وأطفئ نورها زَرِقَتْ، ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ يقول بعضهم لبعض في سِرٍّ وخُفُوتٍ: ما لبثتم في دنياكم وقبوركم إلا عشر ليال، فقد استقلوا مدة لبثهم لإيقانهم بأبدية الآخرة، وإضاعتهم زهرة أعمارهم في لذات الدنيا وشهواتها، وعند المستبصرين زَمَنُ اللذَّةِ قصير، وزمن الشدائد والصعاب والأهوال مديد، ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ لا يخفى علينا ما يتخافتون به بينهم، نحن أعلم منهم بما يقولون في شأن مدة اللبث، ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ يقول أفضلهم رأيا حين يتخافتون بينهم عند الحشر: ما لبثتم إلا يوما، وتنكير "يَوْمًا" للتحقير والتقليل، ونسبت المدة القليلة لأمثلهم لكونهم أشد ندما وأعظم جرما، وَدلالة "أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً" للتهكم واللوم، لأن القائل في الحقيقة ليس كذلك.

٢٩. حالة الأرض والجبال يوم القيامة، ومصير الناس فيه

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢)﴾.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ الكلام في الآية على معنى الشرط، لأن كل أجوبة القرآن عن السؤالات المطروحة على الرسول ﷺ تأتي بدون فاء قبل "قُلْ"، إلا في هذا الموضع وردت "قُلْ" مسبوقة بفاء، فيكون التقدير: إن سألوك عن حال جبال الدنيا يومَ البَعْث، ﴿فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ فقل يا محمد: يَذْهَبُ بها ربي أجزاءً وذراتٍ، وَالنسف: التفتيت والتفريق، "نَسْفًا" تأكيد على حقيقتها لا مجازها، وحشر المجرمين متزامن مع نسف الجبال لأن كليهما وقعَ بعد جملة نفخة البعث "يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ"، والتقدير: ونحشر المجرمين وننسف الجبال...، ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ فَيَدَعُ الله الأرضَ

مسطحةً مستويةً، والمعنى: تَنْدَكُّ الجبال فتسوى مع الأرض، وَالقاع: المستوي من الأرض، وَالصفصف: تأكيد لمعنى القاع، وقيل: التي لا نبات فيها، والأرجح الأول، ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ الجملة مؤكدة ومبينة لِـ "قَاعًا صَفْصَفًا"، والمعنى: لا ترى في مواضع الجبال من الأرض بعد نسفها مُنْخَفَضًا وَلَا مُرْتَفَعًا، فالأول: العِوَجُ، والثاني: الأَمْتُ، والخطاب في "لاَ تَرَى" لكل من طَرَأَ عليه أمر الجبال يوم القيامة، ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ يَتَّبِعُ الناس الداعي يوم تنسف الجبال إلى أرض المحشر، والداعي قيل هو النافخ في الصور، وقد يكون غيره، ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ حال من "الدَّاعِي"، بمعنى: لا أحد يحيد عن مسلك الداعي، أي: كل الناس تتجه صوبه، ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ والجملة حال من "يَتَّبِعُونَ"، والمعنى: يتبعون ... وأصواتُهم خاضعة للرحمن لمهابة اليوم وفظاعته، والخشوع: الهدوء والسكينة، وأسند الخشوع للأصوات بدلا من أعيان الأشخاص من باب المجاز العقلي، وذِكْرُ اسم الرحمن مع هول اليوم للإيناس والاطمئنان، ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ فلا تسمع منهم أيها السامع -غَيْرُ مَعَيَّن- إلا صوتًا خَفِيًّا، ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ يوم وقوع النفخة وحشر المجرمين ونسف الجبال لا تَنْفَعُ الشفاعةُ أحدًا إلا من أذن له الرحمنُ بها، وهم ملائكته الأطهار والأنبياء الكرام والصالحين من العباد، كاستغفار الملائكة للتائبين في سورة غافر، واستغفار يعقوب عليه السلام لأبنائه بعد إنابتهم في سورة يوسف، واستغفار الرسول محمد ﷺ للموفين من المؤمنين والمؤمنات دون المنافقين والكافرين في سورة التوبة والممتحنة، وغير ذلك من الأمثلة، فهؤلاء شفاعتهم نافعة للمشفوعين، بأن ينالوا الدرجات العلى في جنات النعيم، أو تقبل توبة من تاب منهم، ولا شفاعة للعصاة في اليوم الآخر كما صرحت بذلك الآيات القرآنية، والشرط الثاني في قبول الشفاعة: ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ ورضي الرحمن قول الشافع لأجْلِ المشفوع فيه، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يعلم الله ظاهر أمر ملائكته ورسله وأعمالهم وشفاعاتهم وما يبطنون، وَما بين الأيدي: عبارة عن المكشوف الظاهر، والخلف: لفظة دالة على المستور المحجوب، والأرجح عودة الضمير "الهاء" إلى الشفعاء، لا إلى الناس عامة، ومثال ذلك في القرآن: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۞ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُور﴾ [الحج: ٧٥-٧٦]، و أيضا: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ... يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٦- ٢٨]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾

وليس بمقدورهم إدراك حقيقة الله ﷻ وتفاصيل علمه وجزئياته، حتى وإن كانوا عبادا مكرمين ورسلا مصطفين، ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ وذلت نفوس الأشقياء في ذلك اليوم المشهود للحي القيوم، وَالعناء: الذلة والمهانة، وعبر عنهم بالوجوه لأن آثار الذلة والخضوع بارزة عليها، والحَيُّ: الذي لا يتصف بالموت ولا بحياة الخلق، والقَيُّومُ: صفة مبالغة في القيام، وهو القائمُ بشؤون المخلوقين مُطْلَقًا، والمقصود من الوجوه في الآية وجوه الأشقياء لا السعداء، لأن السياقَ حَدِيثٌ عن المجرمين، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ وقد خسر من ارتكب ظلما، ولم يتب منه، والظلم: الشركُ وما دُونَهُ من الكبائر والمخالفات، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق:١]، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ومن آمن بربه إيمانا نابعا من أعماق قلبه، واجتهد في تحصيل الأعمال الصالحة، ولم يخالط عمله بمحبط من المحبطات، ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ فسيكون آمنا من العقاب الإلهي، ولا يخشى فوات شيء من حسناته، وَالظلم: العقاب غير المبرر، والهضم: النقص، وَ"لاَ" ليست ناهية، لاقترانها بالفاء وعدم جزمها الفعل، فالكلام إذا على نية الاستئناف لا على جواب الشرط، فيكون التقدير: فهو لا يخاف.

٣٠. حديث عن لغة القرآن، وعلة تصريف الوعيد، والتحذير من العجلة فيه

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ عطف على جملة "كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ"، فكما نوه الله هنالك بالقصص القرآني بصفته قسما هاما من أقسام القرآن، فهنا يشيدُ بشأن القرآن الكريم وعظمته، والإشارة بِـ"كَذَلِكَ" معناه: مثل إنزالنا الكتب السابقة في الإحكام والبيان أنزلنا هذا القرآن بلغة العرب، ليعلموا أنه في الفصاحة والبيان والإعجاز خارج عن نطاق لسان البشر، واللغة العربية عند الدارسين أحسن اللغات و أبلغها، في تراكيبها وثرائها وأساليبها وفصاحتها، ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ وَنَوَّعْنَا في القرآن مِنَ الوعيدِ، أي: كَرَّرْنَا ذكر الوعيد في مواضع متعددة، وصُوَرٍ مختلفة، ودرجاتٍ متفاوتة، وَالتصريف: التنويع والتفنُّن والتكرير، والوعيد: الجزاء الدنيوي والأخروي

للعاصي، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لعله -أَيْ تَصْرِيفُ الْوَعِيد- يكون لهم باعثا على خشية الله تعالى وطاعته، ﴿أَوْيُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أويوجد لهم يَقْظَةً في عقولهم وتَفَكُّرًا يؤدي بهم إلى الإيمان والاستقامة، و"لَعَلَّ" للرجاء؛ بمعنى: شأن القرآن تقريب الناس إلى التقوى والتذكر، ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ ارتفع شأنه وعظم قدره وتعالى مقامه؛ لإنزاله القرآنَ الكريم على البشرية، المهيمنَ على جميع أفكار الإنسان وأطروحاته، وتَعَالَى الله على مخلوقاته لأنه مالك كل شيء والمدبر لأموره، وصاحب الحق المطلق لعدم شوب قرآنه المعجزوكونه المحكم باطل أوريب، ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ ولا تستعجل يا محمد بالمطالبة بنزول آيات قرآنية تود بها عظة قومك وهدايتهم من قبل أن يَتَقَرَّرَما سينزل عليك، لأنه كان حريصا على المؤمنين، شديد الاهتمام بهم، محبا لهم الخير والصلاح في نفوسهم، وتلطفا بالنبي ﷺ أرشده الله إلى دعاء يشفي غليله واحتراق قلبه بقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ وقل يا محمد رب زدني من علم الوحي، لأن الله تعالى هو الأعلم بحال الأمة وما فيه خيرها وصلاحها وهداها، ومَو اقيت إنزال الهدى، وغيرها.

٣١. مآثر قصة آدم وحواء، وثمرة الاهتداء بالوحي والإعراض عنه

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧)﴾.

جملة الآيات معطوفة على قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ...﴾ [طه: ٩٩]، فبعدما سيقت قصة موسى مع فرعون والسامري، حاويةً عبرا مركزة ومواعظ قيمة، وكأن النبي ﷺ

استحب الزيادة من القصص، لتحصيل الإيمان والاعتبار بالأسلاف الماضية، فاستجاب له ربه بِقَصِّهِ قصة آدم، لأنها أول قصة في الوجود الإنساني، تنبئ عن السنن الإلهية الفاعلة في الوجود، ويجوز أن يكون الرابط المشترك بين القصتين، قصة بني إسرائيل وقصة آدم، التفريط في عهد الله ونسيان مضامينه، قال تعالى في الأولى: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ [طه: ٨٦]، وقال في الثانية: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [طه: ١١٥].

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ﴾ ولقد كان بيننا وبين عبدِنا آدم عهد، من قبل عهدنا إلى بني إسرائيل ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾، فوصيناه بالتزام عهدنا له وتحقيق شروطه، وَ افتتاح الجملة بحرف التحقيق "قَدْ" ولام القسم لقصد الاهتمام بالقصة، وللتنبيه على علاقتها بسابقتها في التفريط في عهد الله، ﴿فَنَسِيَ﴾ ولكن حال دون مراعاةِ العهد النسيانُ والغفلةُ، والنسيان: إهمال الشيء وعدم الاهتمام به حتى يزول عن الحافظة، ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ ولم نجد لآدم قصدا جازما لفعل المعصية، بل كان سبب اقترافه النسيان وغلبة الشيطان له، ويؤيد هذا مفهوم الجهالة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النساء:١٧]، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ شروع في بيان مقتضيات المعهود لآدم، واذكر يا محمد إذ أمرنا ملائكتنا بالسجود لآدم تحية وتعظيما وتكريما وخدمة له، فامتثلوا لأمرنا، ولم يصدهم عارض عن فريضة السجود، كتخوفهم وقوع الإفساد من الجنس الجديد، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ إلا إبليس امتنع عن السجود، لِامتلائه كِبْرًا وحسدا، والاستثناء في الآية منقطع، لأن إبليس ليس من الملائكة حقيقة، و إنما شمله الخطاب لارتقائه إلى مصاف الملائكة في العبادة، وسيره سيرتهم، فَعُدَّ واحدا منهم، فشمله خطاب الله تعالى تقديرا وتشريفا له، ﴿فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ فقلنا لآدم ناصحين: احذر كَيْدَ مَنْ أَبَى السُّجود لك، فهو عدو لك ولزوجك، وأعيدت اللام في "وَلِزَوْجِكَ" للتدليل على أن العداوة لحواء بالأصالة، لا بالتبع، فهي إنسان كآدم لكنها اختلفت على الذكر في بعض الفروق الجسمية والنفسية والتشريعية، ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ فتفطنا لمكائده وحيله المفضية إلى خروجكما من الجنة، فَتَفْقِدَ يا آدم نعيمَ الجنة وراحتها، وتشقى بالعمل والتعب والكدح خارج الجنة ابتغاء الرزق الحسن، وفي الآية إشارة على أن العمل والكد في الحياة لقضاء المآرب والحاجات

متعلق بالدرجة الأولى بالرجل لا بالمرأة، فلم يقل ﷻ: فَتَشْقَيَانِ، لأن الشريعة ضامنة حقوق المرأة بفرض النفقة على الزوج، كالأكل واللباس والعلاج وغيره، ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ إن لك في الجنة أَنْعُمًا تكفيك جهد تحصيل متطلبات المعاش: وهي الشَّبَعُ والامْتِلاء، وسترُالجسد، ووجه الجمع بين الجوع والعراء، أَنَّ الجوع خلو الباطن والعري خلو الظاهر، أوكون فراغ البطن يستدعي عوارض العراء، وهي الشعور بألم الحر والقر، ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ وَلَكَ فيها: الارتواء و انتفاء ضربات الشمس في ضحى النهار، وقد جُمِعَ الوصفان في فاصلة واحدة، لأن الأول حرارة الباطن، والثاني حرارة الظاهر، ومحصل الآيتين: انتفاء اقتران الجوع والظمأ أو العراء وألم الحر، والمراد من إيراد نعم الجنة ومزاياها: الإشعار بوجود أضدادها خارج الجنة، ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ اشتد حسد الشيطان نتيجة تقلب المسجود له تعظيما وتشريفا في نعيم الجنة، فألقى في خاطره كلاما خَفِيًّا، وتعدى فعل الوسوسة بـ: "إِلَيْهِ" بمعنى انتهائها وبلوغها لآدم، ومضمونُ وسوسته: ﴿قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ قال يا آدم: هل أنبئك عن شجرةٍ في الجنة من أكل منها خُلِّدَ ولم يخرج منها، وحَصَلَ على مُلْكٍ لا يَفْنَى، فعندما اقتضى الخلود الانتهاء والأفول في ميزان العقلاء، أخبره بالملك الأبدي، وهو زعم باطل، وقصده إغفاله عن المالك الحقيقي للجنة وهو الله، والنداء باسمه: للإقبال وتوجيه الاهتمام، وَالغرض من الاستفهام: الإغراء والتشويق، والإيهام بإيراد النصيحة، وفي الحقيقة لم يدله على شجرة الخلد بل على الشجرة المنهي عنها، والدليل على هذا عدم تخليده، وتوجيه السؤال لآدم دون زوجه لعلمه بأن اقتداء المرأة بزوجها مركوزفي فطرتها، ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ لَبَّسَ الشيطان عليهما الأمرَ فنسيا أمر ربهما، فأكلا من شجرة الخروج -لا كما زعم الشيطان بأنها شجرة الخلد-، فعاقبهما بإظهارسوءاتِ كُلٍّ من أحدهما للآخر، والسوءة: المنقصة والمثلبة، ويراد بهل في الآية: العورةُ، فلما ساءا بفعل المعصية، أساء الله لهما بإظهارما يسوؤهما، فَمِنْ ذلك الزمان الأوَّل شَعُرَ الإنسان بأشهر نقائِصِهِ، وبدأ في سترها وإصلاحها، والغريب في الأمر أن من أفراد هذا الزمن الحاضرمن يدعوإلى التشهيربمنقصة أبيهم وأمهم الأولى ولا يزال، ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ بَعْدَ بُدُوِّ سوءاتهما شَرَعَا يأخذان من ورق الجنة، لترقيع ما يغطيان به عوراتهما، والخصف حقيقته تقوية الطبقة من النعل بطبقة أخرى لتشتد، واستعيرهنا ليدل على

الترقيع القوي المليء بالأوراق، أي: تَسَتُّرًا مُبَالَغًا فِيهِ، ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ وعصى آدم ربه بأكله من الشجرة، فَضَلَّ عن طريق الرشد باغتراره بوسوسة العدو، وإلحاق العصيان لآدم دون زوجه، دليل على تأثر المرأة بأفعال زوجها، وفي هذا المعنى قال الله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، والغواية: ضد الرشد، ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ الجملة معترضة بين "وَعَصَى آدَمُ" وَ "قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا"، وفائدة الاعتراض التعجيل ببيان العاقبة المحمودة لآدم، لأن التوبة على آدم وزوجه كانت بعد الخروج من الجنة كما أوضحت سورة البقرة، ومعنى الآية: عَلِمَ اللهُ صِدْقَ توبته وإنابته فقربه ربه إلى ظلال رحمته فَقَبِلَ توبته، وهداه إلى الطريق الأقوم والثبات على الطاعة والاستقامة، ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ قال لهم ربهم: انزلا يا آدم وإبليس من الجنة إلى بسيطة الدنيا، وأما حواء فتابعة لزوجها، وَ"جَمِيعًا" تأكيد على عدم بقاء واحد منهما فيها، وفقدان نعمة اللبث في الجنة أثر مترتب على المعصية، فالمعصية مطلقا لها أثرها السلبي في الدنيا ولو بعد التوبة منها، ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ خوطبا بالجمع وأريد عداوة ذريتهما -آدم وحواء والشيطان-، لأنهما أصلا النوعين، والمعنى: ستكون عداوة قائمة بين ذريتكما إلى يوم الدين، وأصل العداوة قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧]، ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ بعدما كانوا في عالم الحقيقة المطلقة، أُودِعُوا في عالمٍ خليطٍ بين الحقائق والأباطيل، والخير والشر، أعلمهم بمجيء بلاغات منه، تهدي البشرية إلى الحق والخير في الدنيا والآخرة، والخطاب متوجه إلى آدم وذريته بالتبع باعتباره أصل نوع الإنسان "فَإِمَّا": "إِنْ" للشرطية و"مَا" للتأكيد، ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ فمن انتهج طريق رسالاتي الهدائية، وأدبر عن منهج الشياطين والمبطلين، فلا يعتريه زيغ أو تيه في الدنيا، ولا يمسه شقاء في الدنيا والأخرى، وبمعنى آخر: المهتدي بالحق الإلهي معصوم عن الخطأ والزلل، وأمِنَ من أسباب التعاسة والهلاك، وَ"هُدَايَ" غير مختص بالقرآن، لأن الكلام عام للبشرية، يشمل كل هدى صادر عن الله، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ ومن استنكف عن هِداياتي، ورضي بإغراءات نفسه وإملاءات الشياطين وأفكار الضالين، فإن له حياةً في الدُّنْيَا شديدةَ الضَّيْقِ، عسيرةَ العَيْشِ، مُخْتَلَّةَ الوَضْع، والمعنى: لا تطاوعه الأسباب الكونية، بل تسير دوما على عكسه، وَفُسِّرَ "ذِكْرِي" بِـ: "هُدَايَ"، لأنه سبب لاستحضار أَمْرِهِ ﷻ في أفانين الحياة ودقائقها، ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أَعْمَى﴾ ويستمر ضنكه في يوم القيامة بأن نحشرَهُ أَعْمَى العَيْنَيْنِ، والمجرم يومئذ متقلب بين حالات العمى والصم والبكم وزرق العين، لأن الله تعالى ذكر في آيات أخرى أنهم يسمعون ويبصرون، ومن ذلك سماعهم و إبصارهم صحائف أعمالهم والنار، والكلام فيما بينهم، مما يدل على أن أحوالهم تختلف باختلاف المو اقف، ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ قال المُعْرِضُ عن ذِكْرِرَبِّهِ: يا رب ما علةُ حَشْرِي أَعْمَى وقد كنت مالكًا بَصَرًا حادًّا؟، ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ قال له ربه: مثل حالك الذي تساءلت عن سببه -وهو حال العمى-، كنت به حين جاءتك آيات الهدى فعميت عنها ولم تُقِمْ لها وَزْنًا، والمعنى: لما كنت أعمى عن الحق في الدنيا، فسيكون جزاؤك عمى في الآخرة، معاملةً بالمثل وجزاءً وفاقا، ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ كَمَا تخليت عن آياتنا وأهملتها فإنك اليوم عندنا مَنْسِيٌّ، أَيْ: مُهْمَلٌ غيرُمَرْحُومٍ، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ ومثل جزاء ضنك المعيشة والإعماء نجازي بهما من أسرف في الطغيان والمكابرة والإفساد في الأرض بمعاصيه، وأعرض عن آيات ربه، والجملة ليست من خطاب الله تعالى للأشقياء يوم القيامة، بل هي تذييل للقصة يراد بها موعظة السامعين ليتجنبوا أسباب الوصول للمصير البَئِيسِ، وَالإسراف: مصطلح قرآني يراد به تجاوزحدود الله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]، كما أنه وليد الإعراض عن الآيات المربية للنفس، المنمية للإيمان في القلوب، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَ أَبْقَى﴾ ولعذاب النارفي الآخرة أَغْلَظُ وأَدْوَمُ مقارنةً بعذاب الله في الدنيا.

٣٢. تخويف المكذبين بمصيرالأمم الماضية، وأمرالجماعة المسلمة بمقومات العبادة: (الصبر، التسبيح، الصلاة)

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْعَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِلَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌوَ أَبْقَى (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْعَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢)﴾.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أفلم يتبين لقومك يا محمد كم أهلكنا قبلهم من القرون الماضية، المعرضة عن ذكرنا، فتكون العاقبة السيئة لتلك القرون موعظةً لهم ورادعًا عن التكذيب والإشراك؟! والاستفهام إنكاري تعجيبي مفرع عن الوعيد بالمعيشة الضنك لمن تصدى للوحي الإلهي بالرفض والإعراض، و"كَمْ" تفيد الكثرة، ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ حال من "القُرُونِ" فيكون المعنى: أهلكنا أهلَ القُرُونِ حالَ كونهم مطمئنين في بيوتهم يترددون فيها مجيئا وذهابا، ويجوز أن يكون حالاً من "لَهُمْ" فيكون المعنى: كيف يعرض قومك يا محمد وهم يعاينون آثار مهلك القرون الماضية؟، والمراد بالقرون: قوم عاد وثمود، فقد كان العرب يشاهدون مساكن عاد أثناء رحلاتهم إلى اليمن ونجران وما جاورها، ومساكن ثمود في رحلاتهم إلى الشام، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ إن في هلاك الأقوام المكذبة و آثارها الخالدة لَعبرًا ومواعظَ لأصحاب العقول المفكرة، والآية تقرير للهداية التي لم يتحلوا بها، أي: لا يحسن عدم اهتدائكم إن كنتم أصحاب عقول واعية، وَ"النُّهَى" جمع نهية؛ وهي العقل، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ ولولا أننا قد حكمنا في علمنا الأزلي بعذاب انتقامي يستأصل جذور المكذبين من قومك في وقت معلوم لكان لزاما علينا إنزاله عليهم، والمعنى: فلما اغتروا بتأخر نزول العذاب عليهم ورددوا قولتهم الشهيرة: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سبأ: ٢٩]، أعلمهم بأن عدم أخذكم كالأمم الماضية حكم إلهي أزلي، له مقاصده وحِكَمُهُ، ولكنْ لكم موعدُ يومِ الآخرة إن بقيتم على ضلالكم، وهذا ما تشير إليه آية سبإ: ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٣٠]، وَ"كَلِمَةٌ" تعبيرٌ مُخْتَصَرٌ عن المَقْضِيّ، وهذا كإطلاقنا على جملة "لا إله إلا الله" كلمة الإسلام، وَ"أَجَلٌ مُسَمًّى" معطوف على "كَلِمَةٌ" فيكون التركيب: ولولا كلمةٌ وأجلٌ مسمًّى، ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ فَتَحَمَّلْ يا محمد أذى مقالات المكذبين، المستهزئين بعذاب الله، ولا يضق صدرك بهم، ولا تستعجل لهم عذاب المكر والانتقام، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ و أقبل على ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها منزها جلاله عن النقائص والمذمات، وحامدا إنعامه ومكرماته، "بِحَمْدِ رَبِّكَ" الباء للملابسة، فيكون موقعُ المجرور "بحمد ربك"موقع الحال، والتقدير: سبح حامدا لربك، ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ وخذ حصة من ساعات الليل وأطراف النهار لمناجاة الله وتسبيحه وتعداد عظائمه وآلائه، ومن المفسرين

من ذهب إلى أَنَّ الأوقات المذكورة هي أوقات الصلاة في الإسلام، فيكون معنى التسبيح: الصلاة؛ لاشتمالها عليه، وقالوا: قبل طلوع الشمس أي: صلاة الصبح، قبل الغروب: صلاة العصر، وقيل: الظهر والعصر معا، آناء الليل: صلاة المغرب والعشاء، وأطراف النهار: قيل: الصبح والمغرب، لأنهما منتهى النهار من أوله وآخره، وقيل: الظهر، لطرف سير الشمس في الأفق، فالزوال نهاية الطرف الأول من القوس وبداية الطرف الثاني من القوس الثاني، وإطلاق الجمع "أطراف" على المثنى -للنهار طرفان لا أكثر- شائع في اللغة العربية كقوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، وقد حَسُنَ اختياره لمشاكلته للجمع في قوله: "وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ"، والأظهر أن الآية ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ... وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ على الإطلاق لا التقييد بالصلوات الخمس، وإن كانت الصلوات الخمس تدخل في ذلك دخولا أولياً، ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ ولك باتصالك بالله يا محمد على مدار اليوم اطمئنان في النفس، وسكينة بالقلب، وقبول بالمفترض عليك من الرسالة وأعبائها وأخطارها، والمراد: أن الرضا والإيمان وعدم السخط ثمرة للتسبيح والعبادة، ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ الخطاب للرسول محمد ﷺمتضمن وعظ أمته، فقد نهى الله نبيه عن إطلاق نظر عينيه على ما مُتِّعَ بِهِ أصناف من الكفار والفسقة، من زخارف الدنيا وبريقها الخادع؛ كالأموال والأولاد والقصور والجاه والثروات وغيرها، فلا إعجاب بمتاعهم لأنه مقرون بالكفر والتكذيب، وهو وسيلة لتعذيبهم في الدنيا، لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٥٥] والمقصود من النظر المنهي عنه: التعجُّب والانبهار، لا مجردَ النظر، ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ زينةَ الحياة الدنيا، شَبَّهَ متاع الدنيا بزهرة النبات لكونها مظهَر زينته وبهائه، فكذا المتاع من الأموال والبنين زينة للدنيا، ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ آتيناهم ذلك المتاع كشفا لمعادنهم واختبارا لأحوالهم، لا إكراما وإحسانا كما توهموا، ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ إذا كان المتاع كالزهرة في لمعانها وبهجتها، فإنه أيضا يماثلها في سرعة ذبولها، والمعنى: متاع الدنيا قليل زائل مقابل أرزاق الجنةِ الحسنَةِ الدَّائِمةِ، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ وأْمُرْ أهلك يا محمد بإقامة الصلاة، لأنها باعثة على الراحة والسعادة والأمان، وليس لمتاع الدنيا من ذلك شيء، ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ واستفرغ قواك للديمومة عليها أَنْتَ وأَهْلَكَ، وَالاِصْطِبَارُ: الصَّبْرُ الشديد، عبر عن الملازمة والمتابعة المستمرة لها بأحد لوازمها وهو الصبر؛ لأن المداومةَ تستلزِمُ الصَّبْرَ القويَّ، ﴿لَا

نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وَاحْذَرْأن يلهيك استرزاقُكَ للمعاشِ عن العبادة و إقامةِ الصَّلاَةِ وأَمْرِ الأهل بها، فإننا لم نطالبك رزقا، نحن نرزقكم، وفي خزائننا ما يغنينا عن العالمين أجمعين، وَالخطاب في الآية متوجه إلى الرسول محمد ﷺ وأُمَّتِهِ بالتَّبَع، وَفيه إشارة إلى إبطال ما تعوده الناس من دفع الجبايات والخراج والهبات للملوك وقادة الأمر، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة للمتقين، فاحرصوا على تحصيلها وشروطها في تَشَعُّبَاتِ حياتِكُم، والمرادُ: الغايةُ المحمودةُ ليست رَهْنَ تحصيل المعاش فقط، بل رهن شرط التقوى الساري في جميع نواحي الحياة.

٣٣. مطالبة المشركين إنزال آية غير القرآن، وتهديد الرسول بعاقبتهم

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (١٣٥)﴾.

في ختام السورة يعود السياق إلى أولئك المكذبين المترفين، وحالهم مع الوحي الإلهي، والمناسبة هي ما تضمنه قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٣٠]، فسِيقَ على سبيل التمثيل لنموذج من الأقوال التي كان الرسول محمد ﷺ يجابهها في مطلع دعوته.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ وقالوا مكابرين متعنتين: هلا أتانا محمد بآية مادية من ربه تُصَدِّقُ مضامين دعواه، لأنهم كانوا يرون القرآن سحرًا و إفْكًا، ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ أولم تأتهم معجزةٌ،وهي ما اشتمل عليه القرآن العظيم من أنباء الأمم الماضية وهلاكهم بتكذيبهم لرسلهم كما اشتمل على ما في الصحف الأولى؛ كالزبوروصحف إبراهيم والتوراة والإنجيل، وفي هذا المعنى قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَ آتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ [المائدة: ٤٦]، والمعنى: كيف يقولون ذلك وقد سبق أن جاءتهم بينة ما في الصحف الأولى؟، وَ"بَيِّنَةُ" الحجة والبرهان، ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ﴾ ولو أننا أهلكناهم بعذاب مستأصل بسبب إشراكهم من قَبْلِ مجيء الرسول بالآيات البينات، ﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ لقالوا مشفقين يوم القيامة: ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا يبين لنا مواطن

انحر افنا وضلالنا، ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ فنتبع آياتك التي أرسلتها على رسولك، لتحجب عنا عذاب الذل في الدنيا، وعذاب الخزي في الآخرة، وقيل: كل من الذل والخزي بعذاب الآخرة، ومعنى الذل: الهوان، الخزي: الافتضاح، ويمكن تفسيرالآية "وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ ...وَنَخْزَى" بمعنى آخر: لماذا تصرون على نزول آية غير القرآن الكريم تثبت دعوى الرسول محمد و أنتم عارفون صدقه، وفي الآخرة تطالبون بمجيء رسول يقيكم من عذاب الذل والخزي، وقد جاءكم؟ فلم لا تؤمنون به؟ ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا﴾ قل يا محمد للجاحدين رسالتَك: كل واحد منا أو منكم منتظر عاقبتَه في الدنيا والآخرة، فانتظروا يا قومي ما سيؤول إليه الأمر، "فَتَرَبَّصُوا" صيغة أمر مستعملة في الإنذار، ويسمى المتاركة، بمعنى: نترككم وتربصكم، لأننا موقنون بعاقبتكم الوخيمة في الدنيا والآخرة، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ فستعلمون علم اليقين في الآخرة من أصحاب الصراط المستقيم ومن هم المهتدون، نحن أو أنتم؟ وقيل: العلم في الدنيا، بعد رؤيتهم مشاهد انتصارات المسلمين في غزوة بدر الكبرى، وعزة الإسلام و انتشاره في ربوع الأرض، والأول أظهر، وختام السورة له ارتباط وثيق بمطلعها، فالخاتمة ملهمة بأن الرسول ﷺ قد بلغ جميع ما كلف به من الإرشادات والتوجيهات والأوامر، فإذا أعرض عنه قومه فكفاه شرفا وعزة أنه أدى الرسالة والتذكرة، وتركهم وضلالهم، حتى يعلموا يقينا أصحابَ الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿طه ۞ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۞ إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ [طه: ١-٣].

نموذج من أسئلة المسابقات السابقة

حتى يتعرف المشارك على طبيعة وطريقة أسئلة المسابقة، فيما يلي نموذج لبعض أسئلة المسابقات السابقة:

١- قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ تضمنت الآيتان علاجا لوسوسة الشيطان هو:

أ	ذكر الله والاعتصام به وطلب الحماية منه لأنه العليم به وبنزغه.
ب	عدم التمادي مع الوسواس حتى لا يتمكن في القلب.
ج	جميع ما ذكر صحيح.

٢- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾
ما الفرق بين الاستماع والإنصات؟

أ	الاستماع محاولة السماع للقراءة بتفريغ قوة السمع للصوت، والإنصات رد كل شاغل عن السماع وعدم الاشتغال بغيره.
ب	الاستماع رد كل شاغل عن السماع وعدم الاشتغال بغيره ، والإنصات محاولة السماع للقراءة بتفريغ قوة السمع للصوت
ج	لا يوجد فرق بينهما، وقد جاء طلب الإنصات تأكيدا لطلب الاستماع

٣- قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (الْأَنْفَالُ) هي:

أ	الغنائم من الحرب.
ب	ما يتقرب به المسلم إلى الله من النوافل.
ج	قوافل التجارة.

٤- قال تعالى: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ كره فريق من المؤمنين الخروج للقتال ببدر بسبب:

أ	عدم استعدادهم للقتال، حيث كانت نيتهم الأولى هي التعرض لعير قريش وليس القتال.
ب	للخوف من العدو حيث كان عدد المسلمين قليلا.
ج	أ و ب صحيحتان .

٥- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ (الطَّائِفَتَيْنِ) هما:

أ	المسلمين والمشركين.
ب	العير المقبلة من الشام وما تحمله من أموال وبضائع، وقتال النفير المقبل من مكة والنصرة عليهم.
ج	المسلمين واليهود.

٦- قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ معنى الاستدراج الوارد في كلمة (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ):

أ	سيرسل الله لهم الآيات والأوبئة والمصائب مما يجعلهم يقنطون من رحمة الله تعالى، فيأخذهم بغتة من حيث لا يشعرون.
ب	سيبسط الله لهم من الرخاء والنعماء ما يجعلهم ينسونه ويستبعدون عقابه، فيأتيهم بأسه من حيث لم يسبق لهم به علم.
ج	سيرسل الله تعالى إليهم السراء والضراء مما يجعلهم ينسونه ويقنطون من رحمته، فيأخذهم العذاب بغتة من حيث لا يشعرون.

٧- قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ورد في تفسير (كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا):

أ	كأنك تتعمد إخفاءها على قومك رغم علمك بها من خلال الوحي.
ب	كأنك صاحب معرفة بها وبحث في شأنها ومهتم بها.
ج	كأنك على اطلاع بإمارات قيام الساعة ولكن تخفيها على قومك للاستعداد للامتحان الدنيوي.

٨- قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ مشيئة الله هنا تعني:

أ	إيمان الإنسان أو كفره بيد الله وحده، ولا اختيار للإنسان فيه مطلقا.
ب	يمكن للإنسان أن يتحول إلى غير دينه بنفسه واختياره المطلق دون أن تكون للمشيئة الإلهية أي تدخل في هذا الجانب.
ج	التأدب مع الله سبحانه وتعالى الذي جعل كل شيء بيديه، حتى إيمانهم الذي تمكنوا فيه، فلو شاء الله خذلانهم بالكفر ما منعه مانع.

٩- قالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ "لخاسرون" كانوا يقصدون بها:

أ	التحذير من اتباع شعيب عليه السلام بوقوع الهلاك والخسارة والمتمثلة في أضرار تحصل لهم في الدنيا من جراء غضب آلهتهم عليهم كما يظنون؛ لأن الظاهر أنهم لا يعتقدون البعث.
ب	التحذير من خسارة ما يجنونه من الأموال نتيجة تطفيف المكيال والميزان وغش الناس.
ج	أ و ب صحيحتان.

١٠- قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ في هذه الآية الكريمة يحذر الله المؤمنين من بلاء يصيب:

أ	المسيء بظلمه ومخالفته لأمر الله تعالى.
ب	غير المسيء لسكوته عن المخالفين وعدم إنكاره المسيء مع القدرة على ذلك.
ج	"أ" و "ب" .

١١- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى ....., وكان ذلك في .....

أ	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى اليهود، وكان ذلك في المدينة المنورة.
ب	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى كفار قريش، وكان ذلك في مكة المكرمة.
ج	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى كفار قريش، وكان ذلك في المدينة المنورة.

١٢- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ المكر هو ....., وتفسير مكر الله سبحانه وتعالى هو .....

أ	المكر هو محاولة إيقاع الضرر خفية، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو إلهام نبيه صلى الله عليه وسلم بالدفاع عن نفسه بمخادعة الكفار ورد مكرهم عليهم.
ب	المكر هو محاولة إيقاع الضرر بالقوة، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو رد مكر الكافرين عليهم بإرسال ملائكته لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم.
ج	المكر هو محاولة إيقاع الضرر خفية، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو حفظ الله لرسوله وإفشال مكر الكافرين حيث أنجاه الله منهم وحفظه وردد مكرهم عليهم.